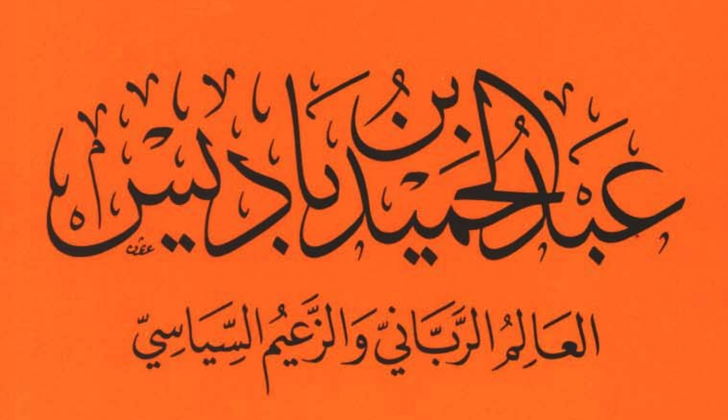
أعلام المسلمين

٢٨



العالِمُ الرَّبّانيّ والزَّعيمُ السِّياسيّ

تأليف

مازن صلاح مطبّقاني



دار القلم

دمشق



تأليف

مازن صلاح مطبقاني

الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دَارُ القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

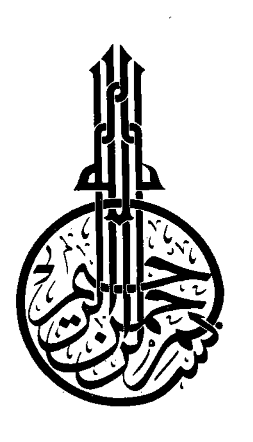
توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارُ البشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


عبد الحميد بن باديس
العالم الرباني والزعيم السياسي

الإهـــداء

إلى روح والدي الحبيب رحمه الله وغفر له فقد علّمنا أن العلم هو الثروة الحقيقية، وإلى والدتي الكريمة أمدَّ الله في عمرها ومتّعها بالصحة والعافية.

مازن


بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا الرجـل

- «حسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، ودينا لابسته المحدثات والبدع، ولساناً أكلته الرطانات الأجنبية وغطى عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السوء، وفضائل قتلتها رذائل الغرب».

محمد البشير الإبراهيمي

- «كنا نتمثل فيه أحد الحواريين أو أحد الصحابة، وما رأينا رجلاً يتمثل فيه الإسلام ويتجسّد كاملاً نقياً بأجل معانيه مثلما رأينا هذا في الشيخ ابن باديس».

محمد الصالح رمضان

- «ما أوتيه من جرأة وزعامة ـ أو زعامة جريئة ـ فلا يجد الإنسان مغمزاً فيه. وفي حياته تكامل ثقافي يكاد ينفرد به، فقد اجتمع فيه ما تعذر وجوده في غيره».

عبد الرحمٰن شيبان

- «ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدّر يتحرك، ويا لها من يقظة مباركة».

مالك بن نبي

● «إن أهمية أفكار ابن باديس لا تكمن في جرأته السياسية فقط، ولكن أيضاً في وضوح رؤيته لأمة جزائرية متجددة تتكلم العربية وتتجه شرقاً إلى مكة».

ريتشاردسون

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

عاش الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله وغفر له - حياته كلها معلّماً، وما تلك إلّا مهمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. فنبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يقول: «إنما بعثت معلّماً». بدأ ابن باديس معلماً على خطا النبوة وأهلته مهنة التعليم للزعامة والقيادة.

جاء عبد الحميد ونور الإسلام من الجزائر يكاد يخبو إلا من بصيص يظهر هنا أو هناك. وفي سنوات قلائل - من عمر الشعوب - جعل الجزائر من أقصاها إلى أقصاها تضيء بالنور الربّاني؛ فانتشرت المدارس، والمعاهد، والنوادي، والجمعيات وتراجعت برامج الفرنسة والإدماج، وانطفأت نيران البدع والخرافات والضلالات، وأصبح الشعب الجزائري يردد «الإسلام ديني، والجزائر بلادي، واللغة العربية لغتي».

صح عزمي على الكتابة عن ابن باديس واستشرت أهل الاختصاص فقيل لي إن الكتابات حول ابن باديس كثيرة: من

بحوث، ودراسات، ورسائل جامعية، ومقالات. فتوقفت قليلاً متردداً بين الإحجام والإقدام، ولكني نظرت حولي فوجدت أن هذه الكتابات على كثرتها ليس بين أيدينا منها في المشرق إلا قليل. وهذه سلسلة مباركة لأعلام المسلمين فليكن لابن باديس مكان فيها فإنّه جديرٌ جديرٌ بالكتابة عنه. ولا أزعم أنني أتيت بجديد، ولكني حاولت أن أكتب عن ابن باديس لا زعيماً سياسياً، أو معلماً مربياً، أو داعية، أو صحافياً، بل حاولت أن أجمع بين هذه كلها، تناولتها بإيجاز، أتجنب فيه التكرار ما استطعت.

ولقد عرف المسلمون منذ عصورهم الزاهية أهمية التعرف على أعلام الأمة فظهرت الكتب الكثيرة حول أعلام الصحابة والتابعين واستمر هذا النوع من الكتابة حتى وقتنا الحاضر، ذلك أن معرفة أعلام الأمة الإسلامية له أهمية خاصة في حث المسلمين على تقدير أعلامهم والسير على خطاهم.

ولعله يقال: باحث مشرقي يكتب عن عَلَمٍ جزائري! فأقول: نعم، إنّ الأمة الإسلامية واحدة: ﴿ إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (الأنبياء: ٩٢). إنّ ما يسُرّ الجزائري يفرح أخاه في أندونيسيا أو الهند أو الجزيرة العربية، وما يؤلم الجزائري يؤلم أي مسلم في أي مكان، وذلك كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد وإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

ونحن اليوم أشد ما نكون حاجة للعالم الربّاني الذي يدفع بالأمة الإسلامية إلى التفتح والتقدم كما فعل الشيخ عبد الحميد ابن باديس، فإن آثار جهاده وكفاحه لا تزال ماثلة إلى اليوم في حياة الجزائر.

آمل أن أكون قد قدمت صورة واضحة لهذا الداعية الإسلامي الكبير، فإن أصبت فمن الله أحمده على هدايته وتوفيقه، وإن أخطأت فإنني أطمع في التوجيه والتسديد.

ولا يفوتني هنا تقديم واجب الشكر والعرفان لأستاذي الدكتور أحمد محمد الخراط لاهتمامه الكبير وبذله الجهود المضنية في القراءة والتصحيح وتقديم الاقتراحات المفيدة، فجزاه الله كل خير. وأقدم شكري للأستاذ محمد علي دولة ـ صاحب دار القلم ـ على قبوله اقتراحي بالكتابة في هذه السلسلة وثقته بي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مازن صلاح مطبّقاني

المدينة المنورة ـ حي المغاربة في ٨ رجب ١٤٠٨ هـ

٢٥ شباط ١٩٨٨ م



مَدخلٌ تاريخي

سعت فرنسا من وراء حملتها لاحتلال الجزائر إلى تحقيق هدفين رئيسيين: أولهما حل قضية الديون المترتبة عليها للحكومة الجزائرية، والثاني إنفاذ أطماعها الصليبية والتوسعية القديمة المتجددة.

أما قضية الديون فتعود إلى عام ١٢١٠ هـ = ١٧٩٦ م حينما قدمت الجزائر لحكومة الثورة في فرنسا مليوناً من الفرنكات لشراء الحبوب من الجزائر. وقد حدثت ملابسات كثيرة بخصوص جهود الجزائر في استرداد دَيْنها، حتى كان آخرها الحادثة التي ادعى فيها قنصل فرنسا دوفال (Duval) أن الباشا ضربه بمروحة كانت في يده نتيجة لحديث دار بينهما. وكان هذا في ٢٩ أبريل ١٨٢٧ م = ذي الحجة ١٢٤٣ هـ[1].

أما أطماع فرنسا الصليبية والتوسعية فتعود إلى عهود بعيدة

---

(١) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: ص ١٥ وص ٢٤، والصحيح أنه عيد الفطر من عام ١٢٤٢ هـ.

تصل إلى أيام وصول الجيوش الإسلامية إلى جنوب فرنسا وهزيمتها على يد شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء في سهول بواتييه. وبرزت روح الانتقام في الحروب الصليبية التي بدأت من فرنسا واستمرت هذه الروح تقوى وتضعف وفقاً لميزان القوى بين أوروبا والعالم الإسلامي، حتى إذا بدأت أوروبا نهضتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية في العصر الحديث واستمر تراجع العالم الإسلامي بدأت فرنسا تخطط للاحتلال والتوسع.

ففي عام ١٧٨٢ م (١١٩٦ هـ) قدم القنصل الفرنسي في الجزائر اقتراحاً لحكومته باحتلال الجزائر، ثم عاود تقديم الاقتراح نفسه عام ١٧٩١ م قائلاً فيه: (إن الجزائر هي المدينة الوحيدة في العالم تستحق أن تُسحق بواسطة آلة جهنمية، لكننا لسنا متأكدين من تأثير ذلك لكي نقدم على المحاولة)[١]. وشارك هذا القنصلَ المستشرقُ مونتور دي بارادي، الذي عُيّن سكرتيراً ومترجماً لملك فرنسا لعلمه باللغة العربية واللهجات البربرية، وذلك بكتابة مذكرات كاملة عن الجزائر عام ١٧٨٩ م = ١٢٠٣ هـ. وبعد ذلك بسنوات تجدد هذا الأمر على يد تاليران وزير العلاقات الخارجية حيث أعدّ دراسة حول إنشاء مستعمرات جديدة في المغرب العربي[٢].

---

(١) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث: ص ٢٧٥.
(٢) المرجع نفسه: ص ٢٧٦.

وفي عام ١٨٠١ = ١٢١٦ هـ أرسل قنصل فرنسا في الجزائر رسالة إلى نابليون بونابرت يزيّن له ويحثه على احتلال الجزائر وأن اسم نابليون سوف «يتردّد في كل الخيام باحترام مقدّس»[١].

وتجلت الروح الصليبية في هذا التخطيط من خلال عبارات وتصريحات المسؤولين الفرنسيين فبعد أن تم احتلال مدينة الجزائر دعا القائد الفرنسي المرشدين العسكريين إلى حفل بهذه المناسبة خاطبهم فيه قائلاً: (قد فتحتم من جديد معنا باب المسيحية في أفريقيا، ورجاؤنا أن تزدهر فيها عما قريب الحضارة التي كانت وانطفأت فيها)[٢] مشيراً إلى الزعم بأن أفريقيا الشمالية كانت مسيحية قبل الفتح الإسلامي، الأمر الذي ينقضونه عندما يتحدثون عن الفتوحات الإسلامية مصوِّرين عناد البربر وعدم قبولهم للأديان السماوية. وثمة عبارة أخرى لأحد الكتاب الفرنسيين الذين رافقوا حملة الاحتلال وهي: (إن الجزائر مملكة مسيحية ولن تكون تونس والمغرب مثلها قبل زمن طويل)[٣].

أما الجزائر فقد كانت خاضعة في هذه الفترة لحكم الولاة

---

(١) المرجع نفسه: ص ٢٧٨.
(٢) عمران أبو الشيخ، «الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي شلفا ١٨٦٧ - ١٨٩٢»، ملحق خاص بمجلة الأصالة عام ١٩٨٠ م.
(٣) المرجع نفسه.

الأتراك الذين تمركزوا في المدن الرئيسة وكانت تسود علاقاتهم التنافس على الحكم. وكان الشعب الجزائري مقسماً إلى ثلاثة أقسام هي:

١ ـ المخزن وهؤلاء هم «رجال الإدارة والحكم من عسكريين وموظفين مدنيين وأصحاب الامتيازات وكبار الملاكين»[1].
٢ ـ الرعية وهم أفراد الشعب الذين يعملون لدى المخزن.
٣ ـ الأمراء المستقلون وهم الذين كانوا لا يخضعون مباشرة لسلطة الداي ويتمتعون باستقلال داخلي مقابل دفع بعض الضرائب والإتاوات.

وقد حرص الولاة على استمرار الانفصام بين هذه الأقسام الثلاثة وذلك بإثارة النزاعات بين الأمراء المستقلين حتى لا يتحدوا ضد الحكومة المركزية ويقيموا حكماً جزائرياً على البلاد وبالتالي يتوطد حكمهم[2].

ولقد كانت حكومة الجزائر تعتمد في مواردها على موردين رئيسيين: أحدهما الموارد الداخلية المتمثلة في الضرائب والإتاوات التي كان يضيع معظمها في أيدي «الوسطاء». أما المورد الآخر فهو الإتاوات والضرائب التي كانت تُفرض على الدول الأجنبية مثل الاحتكارات التجارية، وموارد القرصنة. وهذه العملية كما يذكر أحد المؤرخين الجزائريين كانت في

---

(١) مبارك الميلي، المرجع السابق: ص ٢٩٢.
(٢) المرجع نفسه: ص ٢٩٣.

البداية (رد فعل شرعي ضد الإسبان وضد كل المحاولات الصليبية. فإن ما كانت تدرّه من أموال وموارد جعل العناية بها تتحول من الهدف الأساسي الذي كان من أجله وَضْعُ حدّ للتوسع الأوروبي في شمال أفريقيا إلى ما تدرّه من أموال وموارد)[1].

كان في الجزائر نشاطات اقتصادية مختلفة منها الزراعة والصناعة والتجارة. ونظراً لطبيعة نظام الحكم وارتفاع نسبة الضرائب فقد أدى إلى عدم استغلال جميع الأراضي الصالحة للزراعة. ومع ذلك فقد كان هناك ازدهار محدود في هذا القطاع. ويقال الشيء نفسه عن التجارة التي تمثلت أنشطتها في التبادلات التجارية المحلية كأسواق الريف، وأسواق المدن. كما وُجد تبادل تجاريّ بين المدن الحدودية مع تونس والمغرب. أما التبادل التجاري الخارجي فقد عانى من وقوف الدول الأوروبية في وجه المنتوجات الجزائرية كالحبوب وغيرها مما أدى إلى تدهور الاقتصاد الجزائري وفقدان الدولة هيبتها. وكان لليهود أثر هدّام حين سيطروا على بعض الدايات، وأمسكوا بزمام التجارة الخارجية حتى كان الطرف الأساس في ديون الجزائر على فرنسا لاثنين من اليهود.

ووُجدت في الجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج،

---

(١) الميلي: ص ٣٠٧.

ودباغة الجلود وصناعة الأحذية وصياغة الذهب والصناعات الخزفية، وصناعة السجاد والبرانس[1].

أما الحياة الثقافية في الجزائر فقد طبعت بالطابع الإسلامي، ليس من الناحية العقدية فحسب بل أيضاً من النواحي الحضارية حيث كانت هذه الأسس التي نظمت التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية. فالتعليم كان منتشراً انتشاراً واسعاً في المدن وفي القرى والريف، حتى إن بعض المؤرخين الفرنسيين اعترف بأن نسبة المتعلمين في الجزائر كانت أعلى منها في فرنسا[2]. وكانت مراكز التعليم هي المدارس والمساجد والزوايا وتتلقى التمويل المادي من الأوقاف التي يحبسها أهل الخير والصلاح أو الموظفون السامون في الدولة.

وكان التعليم على مستويات ثلاث: الابتدائي والثانوي والعالي، وتبدأ سن التعليم من السادسة إلى العاشرة. وبالإضافة إلى أماكن التعليم التي ذكرنا كان هناك ما يدعى «الشريعة» وهي الخيمة تُنصب في القرية (الدوار)، وكان هناك الكتّاب أو ما يسمى الـ (مسيد)، بالإضافة إلى التعليم في المساجد.

وتركز التعليم على القرآن الكريم، والحديث، والعلوم العربية والإسلامية.

---

(١) المرجع نفسه: ص ٣١٠ - ٣١٦.
(٢) سعد الله: ص ١٦٠.
(٣) المرجع نفسه.

وفي التعليم العالي كان الطلاب يدرسون النحو، والفقه، والتفسير، والحساب، والفلك، وكذلك التاريخ الطبيعي والطب[1].

ويرى المؤرخون أن الحياة الفكرية والأدبية لم تكن تدل على نهضة ثقافية؛ فقد عانت الجزائر ما عانته بقية بلاد المسلمين من تأخر وعدم القدرة على الإبداع. فانحصر الجهد العلمي في الحفظ وكتابة الشروحات والحواشي والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع، فقلّ وجود النوابغ. كما أهملت العلوم العقلية في الكيمياء والطب والطبيعة وغيرها[2]. لكن مثل هذه الأحكام العامة لا تعَدُّ مقياساً دقيقاً للحياة الفكرية بالإضافة إلى أن مصيبة الاحتلال قد أضاعت الكثير وطمست الكثير من الفكر الذي كان موجوداً. وقد يكون هذا امتداداً لاتهام الدولة العثمانية بأنها لم تشجع الفكر والثقافة وطول مدة الاحتلال حتى كانت معظم المصادر للكتابة عن الفترة العثمانية تستقي من هذه المصادر.

استطاعت فرنسا احتلال ميناء الجزائر بعد ثلاث سنوات من بداية الحصار الذي بدأ عام ١٢٤٢ هـ = ١٨٢٧ م. ومن الجزائر انطلقت لاحتلال بقية المناطق ولكنها لقيت مقاومة في أرجاء مختلفة من الجزائر. فظهر الأمير عبد القادر في غرب الجزائر وظل يقاوم سبعة عشر عاماً. كذلك واصلت قسنطينة المقاومة

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) عبد الرحمٰن بن محمد الجيلاني، تاريخ الجزائر العام: جـ ٤ ص ٢٤٢.

بقيادة أحمد باي ولم تسقط حتى عام ١٢٥٢ هـ = ١٨٣٧ م[١].

نهضت الجزائر تقاوم بعد استسلام الأمير عبد القادر وسقوط قسنطينة فنشبت الثورات هنا وهناك في الأرض الجزائرية، وكان من أشهرها ثورة المقراني والحداد وبوعمامة، وأولاد سيدي الشيخ، وبوبغلة، ولالا فاطمة تسومر وغيرهم[٢].

ولم تكن الثورات المسلحة هي الوسيلة الوحيدة لمطالبة الجزائريين بحريتهم واستقلالهم فقد قام بعض رواد الفكر الوطني الجزائري بنشاط سلمي هام أمثال: المصطفى بن الخوجة الذي قدم للحكومة الفرنسية مطالب الشعب الجزائري في حقوقه وحريته في كتاب نشره بفرنسا بعنوان «المرآة»، وتوالت المطالبات بأقلام أخرى أمثال أحمد بوضربة وحميدة بن باديس وغيرهما[٣].

كانت الانتفاضات المسلحة في غالبها تقتصر على منطقة جغرافية محدودة من الأراضي، لذلك لم تستطع أي منها تعبئة جميع الوسائل الكفيلة بإنجاحها، فإن الجزائر وإن كانت قوية قبل الاحتلال الفرنسي إلا أنها كانت تعاني من أعراض «القابلية للاستعمار»، من ذلك نمو روح الفرقة، والبعد عن الدين الإسلامي، وكذلك عدم وجود القائد الذي تلتف حوله قوى

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) يراجع في هذا الكتب التالية: الجيلاني «تاريخ الجزائر العام»؛ يحيى بوعزيز «المقاومة الجزائرية»؛ وغيرهما.

(٣) محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وبوضربة وحمدان خوجة.

الشعب الجزائري جميعها، ولا يمكن القول بأن هذه الحركات فشلت في تحرير الشعب الجزائري من الاحتلال، بل كانت شعلة تضيء ثم يخبو اشتعالها إلى حين، فلمّا توفرت الأسباب عادت هذه الشعلة وأصبحت ناراً محرقة.

دخلت فرنسا البلاد وهي تعرف مكامن القوة والضعف فيها. دخلتها ولديها رصيد من الدراسات حول الإسلام الذي هزمت جيوشه أمبراطورية فارس والروم، وبلغت فتوحاته حتى جنوب فرنسا، بل وتعرف من التاريخ القريب لماذا كانت الجزائر قوة بحرية كبرى تجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، وتحمي الشواطىء الإسلامية من الغزو الصليبي. ولم يكن الأسطول الجزائري أسطول قراصنة، كما كان الأوروبيون ولا يزالون يزعمون، وقد عرفت فرنسا أن الإسلام هو الذي يوحد الشعب الجزائري، فعملت منذ أن وطئت أقدامها أرض الجزائر على محاربته. بل إن حملة الاحتلال رافقها مجموعة من القسس ليشهدوا انتصار النصرانية على الإسلام عاقدين العزم على إعادة هذه البلاد إلى ما كانت عليه حين تنصّر بعض سكانها وعُدّت أفريقيا الشمالية بلداً مسيحياً. ويؤكد هذا ما قاله لويس فويو كاتب الجنرال بيجو سنة ١٨٤١ م = ١٢٥٦ هـ: (إنّ العرب لن يكونوا لفرنسا إلّا إذا صاروا فرنسيين، ولن يكونوا فرنسيين إلّا إذا تنصّروا)[١]. وبرر أحد الفرنسيين سياسة التنصير بقوله: (إن

---

(١) عمران أبو الشيخ، مرجع سابق نقلاً عن L'abbe Dopigez, Souvenirs, 1840. p. 166.

تعصب المسلمين هو الأمر الحقيقي الذي يدعم المقاومة التي نواجهها في أفريقيا، وهذا الدين (الإسلام) الذي احترمناه إلى يومنا هذا نقترح الآن بجرأة محاربته. وهكذا نثبت قومنا وننشر طقوسنا على أنقاض الإسلام)[1]. وطالب الأسقف لافيجري ـ الذي أصبح بمرتبة كاردينال فيما بعد ـ طالب الحكومة الفرنسية بأن عليها أن تفسح للمنصِّرين المجال ليقدّموا الإنجيل للشعب الجزائري وإلا فعليها أن تطرده إلى الصحارى بعيداً عن العالم المتمدن[2].

لئن كانت فرنسا قد وقّعت معاهدة الجزائر في ١٢٤٦/١/٤ هـ = ٥ يوليه ١٨٣٠ م التي تنص على احترام فرنسا لأملاك الجزائريين وشرفهم ودينهم، إلا أنها راحت تخرق هذه المعاهدة منذ الأيام الأولى للاحتلال. فأصدرت القرارات المتتالية للسيطرة على الأوقاف الإسلامية فكان أولها في ١٢٥٩/٢/٢٢ هـ = ١٨٤٣/٣/٢٣ م. وقرار الاستيلاء على الأملاك الحكومية سنة ١٢٦٨ هـ = ١٨٥١ م. ولم تكتف بهذا، بل منعت الملكية المشاعَة أو الجماعية بقرارها المؤرخ في ١٢٩٠/٦/١ هـ = ١٨٧٣/٧/٢٦ م[3]، مما أدى إلى ضياع الأرض من أيدي الجزائريين، وأدى بالتالي إلى تفكك الأواصر

---

(١) المرجع نفسه، رسالة لضابط فرنسي لم يذكر اسمه: ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، نقلاً عن لافيجري، رسالته المؤرخة في ٦ أبريل ١٨٦٨ م.

(٣) عبد الرحمٰن الجيلاني، تاريخ الجزائر العام، في أربعة أجزاء (اقتباسات من مواضع مختلفة من هذا الكتاب).

الاجتماعية بين الجزائريين. أما استيلاؤها على الأوقاف فقد تسبب في تحطيم المورد المالي للتعليم الإسلامي الذي كان يعتمد على هذه الأوقاف اعتماداً كلياً. ولتطمئن فرنسا إلى ضياع التعليم فقد قامت بالاستيلاء على المساجد، وهدم معظمها، وتحويل بعضها إلى مكاتب وثكنات عسكرية. وكانت هذه المساجد أشبه بمدارس اليوم وجامعاته. وشرعت تسنّ القوانين للحدّ من حرية التعليم الإسلامي وذلك بالتدخل في مناهج التدريس، فمنعت تفسير القرآن الكريم ولا سيما آيات الجهاد، بالإضافة إلى عرقلة فتح المدارس الجديدة الإسلامية الخاصة ومنعها من القيام بأعمالها[1].

أرادت فرنسا أن تقضي على الإسلام قضاءً مبرماً ففتحت المدارس الفرنسية لتعليم بعض أبناء الجزائر تعليماً فرنسياً لا دينياً يجعل من هؤلاء الجزائريين يفخرون بأن بلادهم هي بلاد الغال وأجدادهم هم الغاليون وأنه ليس هناك وطن اسمه الجزائر. وهذا نصّ ما قاله أحد أبناء الجزائر المتخرج في هذه المدارس: (فما كنتُ لأموتَ من أجل هذا «الوطن الجزائري» لأن هذا الوطن لا وجود له)[2]. أما تاريخ البلاد الحقيقي فتنقله لهم بصورة مشوهة.

---

(١) التيجيني هدام (سفير الجزائر السابق في المملكة العربية السعودية)، مقابلة شخصية معه في جدة في ٢٢/ رمضان ١٤٠٣ هـ = ١٨ يونيه ١٩٨٣ م، وهي قبل زيارتي الأولى للجزائر في شوال ١٤٠٣ هـ.

(٢) الشهاب: ج ١ م ١٢ في محرم ١٣٥٥ هـ - أبريل ١٩٣٦ م: ص ٤٣ - ٤٤،

ومن وسائل الاحتلال في محاربة الإسلام تشجيع البعثات التنصيرية، وعلى رأسها «جماعة الآباء البيض» التي استخدمت أحط الوسائل لتنصير الشعب الجزائري ومن ذلك اغتنام فرصة المجاعة الكبيرة التي حدثت في الجزائر بين عامي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٦ ـ ١٨٦٨ م لجمع عدد من الأيتام لتربيتهم تربية مسيحية وتعميدهم. ومن الوسائل الأخرى بناء المستشفيات، والاشتراك في الزراعة.

والحقيقة أن هذه الوسائل اصطدمت بمقاومة الإسلام الصلبة التي شبهتها كاتبة فرنسية بالإسمنت المسلّح وذلك في قولها: (وردّ المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين عاماً ١٨٣٠ ـ ١٨٥٠ م = ١٢٤٥ ـ ١٢٦٥ هـ يُحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ، وينشىء المستشفيات فلا يتردد إليها مريض، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي كالإسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج)[١]. وقد مضى لافيجري ومساعدوه في نشاطهم التنصيري رغم هذه العراقيل، ولما حقق بعض النجاح طمع في مدّ نشاطه إلى دول المغرب الأخرى ودولٍ أفريقية أخرى.

وكان من أخطر القرارات الفرنسية اعتبار الجزائر قطعة من

= نقلاً عن جريدة الوفاق الفرنسية في مارس ١٩٣٦ م: L'Entente.

(١) Yuvanneturrine, Affortment Culturale dans L'Algirie Coloniale, française Maspero, Paris 1971, p. 25.

فرنسا وقسمتها إلى ثلاث ولايات هي: قسنطينة والجزائر ووهران، وأصدرت عام ١٢٨١ هـ = ١٨٦٥ م قرارها المعروف بـ «سناتوس كونسلت» Senatos Consult الذي ينص على أن جميع الجزائريين هم رعايا فرنسيون، ويحق لهم الحصول على الجنسية الفرنسية شريطة أن يتنازلوا عن الاحتكام إلى قانون الأحوال الشخصية الإسلامي. وقد باء هذا القرار بالفشل وذلك أن عدد الذين قبلوا الجنسية الفرنسية حتى عام ١٣٣٧ هـ = ١٩١٩ م لم يتجاوز خمسمئة وألفي شخص[١]. أما مَن بقي من الجزائريين على جنسيته الجزائرية الإسلامية فقد أخضعته السلطات الفرنسية لمعاملة قاسية لا تليق بالعجماوات. وذلك بفرضها على الجزائريين قانوناً خاصاً سمته قانون الأنديجينا (الأهالي)[٢] عام ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م، وهذا القانون يحدّ من حرية الجزائري ويجعله عرضة للمحاكمة والغرامة لأتفه الأسباب.

كما سنّت قانون الاحتجاز السري ليكون سيفاً مصلتاً على رؤوس الجزائريين، لاعتقالهم لأدنى شبهة بمعارضة فرنسا.

ولعل المقال الذي كتبه محمد فريد بك حين زار الجزائر عام ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م من أدق ما وصفت به الجزائر حيث يقول: (يُعامَل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة

---

(١) Horne, A Savage War of Peace. op., cit., p. 35.

(٢) قانون الأنديجينا خاص بالجزائريين وينص على إعطاء الحق للمتصرف في =

والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع، بل ومن حرية السفر والانتقال، وحرية مطالعة الكتب والجرائد. ومن الغريب في بلاد الجزائر أنه لا يجوز للعربي أن يسافر خارج المركز الذي يقيم فيه..). وتحدث محمد فريد في مقال آخر عن التعليم فقال: (وصارت الديار مرتعاً للجهل والجهلاء، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها من السواحل والثغور)[1].

= الحكم على الجزائري بالسجن خمسة أيام وبغرامة مقدارها ١٥ فرنكاً. ومن أنواع الجنح والمخالفات التي تعرّض مرتكبها لهذه العقوبة ما يلي:

١ ـ تكلم بما لا يليق في فرنسا وحكومتها.

٢ ـ عدم تنفيذ أمر الحراسة (حراسة الغابات).

٣ ـ عدم تنفيذ الأوامر التي تصدر لتعيين الملكية أو لحفظها. ويبلغ عدد البنود عشرين بنداً. عن أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر: ص ٣٥٢ وما بعدها.

(١) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر: ص ٥٢ و٩٨، عن اللواء: الأعداد ٦٠٩ في ٩ أكتوبر ١٩٠١ م و٦١٢ في ١٣ أكتوبر ١٩٠١ م.

الفَصْل الأوّل
الإمَامُ عَبْدُالحَمِيد بن بَادِيس

ولادته ونسبه:

في هذه الأجواء الحالكة الظلمة وُلد الشيخ عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس يوم ١١/٤/١٣٠٧ هـ = ٤ ديسمبر ١٨٨٩، من عائلة عريقة في الحسب والنسب. فتعود جذور عائلته إلى بلكين بن زيزي بن مناد، ويكنى بأبي الفتوح وقبيلته هي صنهاجة الأمازيعية. ومن جدود ابن باديس المشهورين المعز بن باديس الذي قاوم الشيعة الرافضة، وقد ذكره ابن خلدون في تاريخه للدولة الصنهاجية[١]. ولم يقتصر تاريخ الأسرة على هؤلاء، ففي تاريخ الأسرة القريب وُجد أشخاص لهم مكانتهم في المجتمع الجزائري ومن هؤلاء أبو العباس

(١) عمار الطالبي، عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره: ص ٧٢ وما بعدها. وأما ما ذكره د. سعد الله في كتابه «محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر» أن لابن باديس خؤولة تركية لأن أمه زهرة من أسرة آل جلول فقد نفاها أحد معمري قسنطينة ذاكراً أن عائلة جلول عائلة جزائرية من نواحي الصحراء ولا علاقة لها بالأتراك.

حميدة ابن باديس الذي كان قاضياً، فلما رأى ظلم فرنسا واستبدادها أرسل عريضة ضمّنها مطالب الشعب الجزائري في الحرية الدينية وفي اصطلاح القضاء عام ١٣١٠ هـ = ١٨٩١ م وقد نشرها عبد الحميد بن باديس في الشهاب في عدد أبريل ١٩٣٧ م.

ولكن تاريخ الأسرة القريب لم يبد مشرِّفاً في نظر بعض المؤرخين لارتباط والد الشيخ عبد الحميد بالحكومة الفرنسية بعمله في النيابات المالية التي كانت من أرفع المناصب التي يمكن أن ينالها جزائري في ذلك الوقت[1]، بيد أننا نجد الشيخ عبد الحميد يذكر فضل والده عليه وتوجيهه إلى الدراسة الدينية ورعايته له في الحفل الذي أقيم في قسنطينة بمناسبة ختم الشيخ ابن باديس تفسير القرآن الكريم حيث قال: (إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً، وكفاني كلف الحياة... فلأشكرنّه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع أجر المحسنين)[2].

أما معاصرو الشيخ ابن باديس فيقول أحدهم عن والده: (فقد

---

(١) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ـ القسم الثاني ـ ص ١٧٩ وما بعدها.
(٢) الشهاب: ج ٤ م ١٤، ربيع الثاني / جمادى الأولى ١٣٥٧ = يونيه/ يوليه ١٩٣٨.

كان يرحمه الله من ذوي الفضل والمروءة والحفاظ على شعائر الدين والغيرة عليه، كان يحفظ القرآن الكريم)، ثم يردّ على من ادعوا زوراً أن والده كان معارضاً لنشاط ابنه العلمي والسياسي فيقول: (ليس صحيحاً ما قيل عنه إنه كان غير راضٍ عن نشاط ابنه العلمي، ودليل ذلك أنه هو الذي سعى لدى الحكومة من أجل الإذن له بالتدريس في الجامع الأخضر بعد أن سعى ابن الموهوب لمنعه من التدريس في الجامع الكبير)[1].

وهناك دليل آخر يبرهن على تأييد والده له وهو أنه لما أقيم حفل اختتام تفسير القرآن الكريم وأراد الشعب الجزائري تكريم الشيخ عبد الحميد رأى والده بثاقب نظره أن السلطات الفرنسية لن ترضى عن هذا الاحتفال الذي يُعَدّ مظاهرة كبرى في اهتمام الجزائر بالقرآن الكريم وعلمائه ممثَّلين في شخص ابن باديس، فما كان من والده إلا أن دعا المسؤولين الفرنسيين إلى وليمة أقامها لهم في بستانه خارج قسنطينة ليشغلهم عن هذا الاحتفال[2].

ولكن هذا قد لا يكون دليلاً قويّاً فما كان للمسؤولين الفرنسيين أن تغريهم وليمة تقام عن الكيد للإسلام والمسلمين

---

(١) علي مرحوم، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، الأصالة: العدد ٢٤ في مارس/ أبريل ١٩٧٥، ص ١١٣.

(٢) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة: ج ٢، الجزائر، ص ٥٣، الطبعة العربية ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م.

وما كانوا ليجهلوا تقاطر وفود القطر الجزائري على قسنطينة من أجل هذا الاحتفال وهم الذين كانوا يراقبون كل صغيرة وكبيرة في حياة العلماء. لعل السلطات الفرنسية رأت أن تترك الحفل يمر بسلام ظناً منها أنه تكريم لشخص عبد الحميد بن باديس أكثر منه احتفالاً بالقرآن الكريم وتقديراً لقيمته في حياة الأمة الجزائرية. وقد خيب ابن باديس هذا الظن حين أعلن في بداية الاحتفال أنه قبل هذا التكريم ليكون تنبيهاً للأمة إلى أهمية كتابها الكريم. وقد خصصت الشهاب عدداً من أعدادها لهذه المناسبة وسجّلت فيه الكلمات والخطب والقصائد التي ألقيت.

ولعلنا نستنتج أن والده لم يكن موالياً للاستعمار. وإننا نرى أن نحيِّي هذا الأب العظيم الذي أنجب للأمة الجزائرية بل وللعالم الإسلامي عالمها الرباني وزعيمها السياسي، وهيأ له كل ما يستطيع ليقوم بعمله الإصلاحي وهو في كنف والده. ثم إن مما يحفظ لهذا الوالد من الذكر الطيب توجيه ابنه وجهة إسلامية في حين كان ـ ولا يزال ـ الأثرياء والضالعون في السير في ركب الاستعمار ـ قديماً وحديثاً ـ يوجهون أبناءهم للتعليم الغربي الأوروبي.

تعليمـــه:

كانت الدروس الأولى التي تلقاها ابن باديس هي حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد المداسي، فأتم حفظه وهو في الثالثة عشرة من عمره. ولما أبدى نجابة وذكاء مميزين قدَّمَهُ

أستاذه لإمامة الناس في صلاة التراويح لمدة ثلاث سنوات وذلك في الجامع الكبير في قسنطينة. وبعد حفظه للقرآن الكريم انتقل ابن باديس للدراسة على الشيخ حمدان الونيسي[١] حيث تلقى على يديه علوم العربية والفقه والحديث. وقد توطدت الصلة بين التلميذ وأستاذه الذي أخذ عليه عهداً بأن لا يلي عملاً حكومياً لعلمه أن الوظيفة الحكومية تعيق الداعية عن عمله، بل تتجاوز ذلك أحياناً إلى الحط من كرامته وتقييد حريته.

هاجر الشيخ حمدان إلى المدينة المنورة ولما يكمل التلميذ تعليمه بعد، فاتجه إلى الزيتونة عام ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م وعمره حينذاك تسعة عشر عاماً، ليدرس هناك ثلاث سنوات نال بعدها شهادة التطويع، ومكث سنة رابعة للتدريس في الزيتونة كما هو معمول به في مثل هذه المعاهد والجامعات[٢].

وقد كانت دراسته في تونس مناسبة لإكمال تعليمه على أيدي علماء أفاضل أثّروا في الشيخ عبد الحميد أبعد التأثير. ومن هؤلاء الشيخ محمد النخلي أستاذ التفسير، والشيخ الطاهر بن

---

(١) حمدان الونيسي: من علماء الجزائر المشهورين، هاجر إلى الحجاز عام ١٩٠٨ وكان يدرس بالمسجد النبوي، ومن أعلام علماء الحديث والمذهب المالكي، أثنى عليه علماء المدينة ومنهم الشيخ محمد الحافظ. توفي عام ١٩٢٠. عن أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ج ٢، ص ٢٣١، قسنطينة دار البعث، ١٩٨٤.

(٢) محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠ - ١٩٦٢: ص ٦١.

عاشور مدرس الأدب العربي، والبشير صفر أستاذ التاريخ[1].

وهنا تفتحت أنظار ابن باديس على ما كان يجري في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى مطالعاته الخارجية التي جعلت تحصيله العلمي يفوق كثيراً ما يناله من سعي الحصول على الشهادة فقط. ذلك أن الشهادات تعطي مؤشراً للثقافة التي حصل عليها الدارس بحسب المستوى الذي عُرف عن المعهد الذي أعطى الشهادة[2]. أما الشيخ عبد الحميد فقد كان شاباً مختلفاً عن أقرانه، فقد تيسرت له سبل التحصيل العلمي كما لم يتيسر لغيره، ذلك أنه لم يكن يحمل هماً من هموم الحياة كالسعي لاكتساب الرزق أو رعاية أسرة وأطفال. ولعلنا نستمع إلى ما يقوله الشيخ عن مطالعاته وإصراره على التحصيل فيما رواه عنه أحد تلاميذه: (كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة مستعيناً ببعض المنبّهات، لكني حين أحسّ أن النوم يغالبني، ولم تعد

---

(١) محمد النخلي: (١٨٦٢ - ١٩٢٤ م) = (١٢٧٨ - ١٣٤٢ هـ) ولد بالقيروان وتوفي بتونس، شاعر وفقيه من أعلام مدرسي جامع الزيتونة، كان متأثراً بمدرسة عبدة والأفغاني.

الطاهر بن عاشور: (١٨٧٩ - ١٩٧٣ م) = (١٢٨٧ - ١٣٩٣ هـ) ولد بتونس من كبار علماء الزيتونة له مؤلفات هامة أشهرها في التفسير (التحرير والتنوير) وغيرها.

البشير صفر: أحد علماء تونس وأستاذ التاريخ في الجامعة الزيتونية، كانت ثقافته واسعة.

(٢) أحمد بن ذياب، ابن باديس في ذكرى وفاته السادسة والثلاثين، الأصالة: العدد ٣٢، ربيع الثاني ١٣٩٦ = أبريل ١٩٧٦.

المنبّهات تنفع في دفعه عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقاي على الأرض أو أحدهما فيلامس الآجرّ بارداً فأستيقظ وأجدّد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها)[١].

ولم يكن هذا الاجتهاد ليضيع هباءً فقد برز ابن باديس بين طلبة الزيتونة حيث كان على رأس قائمة الخريجين، وتلك ميزة لم يكن يحصل عليها سوى أبناء مشايخ الزيتونة ومن أبناء العاصمة الزيتونية، ربما لتوفر الظروف النفسية والاقتصادية لهم أكثر من غيرهم.

وقد عُرف ابن باديس بنبوغه رغم صغر سنّه، حتى إنه استطاع اختصار مراحل الدراسة المقررة وهي سبع سنوات إلى ثلاث سنوات فقط حيث أهّله تعليمه على يد الشيخ حمدان الونيسي الالتحاق بالسنة الرابعة[٢].

نشاطه التعليمي قبل الحرب العالمية الأولى:

عاد ابن باديس إلى الجزائر ليبدأ نشاطه التعليمي في قسنطينة في الجامع الكبير، ولأسباب كثيرة ـ لم يتعرض لذكرها مؤرخو حياة ابن باديس ـ نقم عليه مفتي المدينة المولود بن الموهوب

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) محمد صالح الجابري، احتفالات بذكرى وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، الثقافة: عدد ٨٤، رجب/ شعبان ١٤٠٧ هـ = مارس/ أبريل ١٩٨٧ م.

فمنعه من التدريس في هذا المسجد بإطفاء الضوء عليه في أثناء الدرس. أما الأسباب فلعلها حيوية ابن باديس وعدم تقيّده بأساليب الشيوخ في التدريس وطبيعَة أفكاره ومنهج تفكيره. أمّا أن يكون حقداً شخصياً فأمر مستبعد لصغر سن ابن باديس حينئذ وعدم وجود ما يوجب ذلك إلّا أن يكون تحريضاً من فرنسا.

بعد هذا المنع انتقل ابن باديس للتدريس في المسجد الأخضر بإذن من السلطات الفرنسية بناءً على توسّط والده لديها في هذا الأمر. ولم تمض سوى مدة قصيرة على بدء نشاطه العلمي حتى فكر ابن باديس في أداء فريضة الحج، فرحل إلى الحجاز عام ١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م. وهناك عدة آراء حول أهداف هذه الرحلة. فقد ذكر بعض المؤرخين أنها كانت هرباً من التجنيد[١]، بينما رأى البعض الآخر أنه أراد الاستزادة من العلم في الحجاز ومصر حيث كان التعليم مزدهراً في كلا البلدين حينذاك[٢]. ورأى أحدهم أنه كان في شوق لرؤية أستاذه الشيخ حمدان الونيسي.

وأما مسألة الهرب من التجنيد الإجباري فإنه يمكن لفرنسا أن تتنازل عن تجنيد شخص واحد إكراماً لأبيه، وبخاصة أن هذا الابن كان من العلماء الذين من الممكن إعفاؤهم من التجنيد.

---

(١) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية: ج ٢، ص ٤١٤، ١٩٠٠ ـ ١٩٣٠، ط ٣.

(٢) رابح، مرجع سابق: ص ١٧١.

أما الأهداف الأخرى فالحجّ ليس قاصراً على أداء الشعائر فإنها كلها تدخل تحت باب المنافع المذكورة في الآية الكريمة ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾، ومن المنافع تلقي العلم والبر بأستاذه الشيخ حمدان الونيسي.

لقد منّ الله على ابن باديس بأداء فريضة الحج عام ١٣٣١ هـ = سبتمبر ١٩١٣ م، وهناك التقى أستاذه الشيخ حمدان وتعرف إلى بعض علماء المدينة ومنهم الشيخ حسين الهندي[١]. وهنا نصحه أستاذه بالهجرة إلى المدينة وترك الجزائر فتدخل الشيخ الهندي وأشار عليه بعدم الهجرة وأنه لا بد من العودة إلى الجزائر لنشر الدعوة وقمع البدعة ومقارعة الاستعمار. وفي المدينة المنورة تعرف ابن باديس إلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي سبقه في الرحيل إلى المدينة المنورة مهاجراً مع أهله. وتوطدت الصلة بينهما، ومكثا معاً ثلاثة أشهر يلتقيان كل ليلة من بعد العشاء الأخير حتى قبيل الفجر يبحثان الأوضاع في الجزائر، ويفكران في أنجع الوسائل لإصلاح الأحوال هناك[٢].

---

(١) الشيخ حسين الهندي: من علماء المسجد النبوي الشريف في بداية القرن العشرين، وقف في وجه الثورة العربية الكبرى مما أدى إلى نفيه إلى مالطا أولاً ثم إلى الهند وهناك تولى رئاسة العلماء بمدينة (ديوبند). معلومات عنه من الشيخ محمد الحافظ أحد علماء المدينة وقضاتها.

(٢) محمد البشير الإبراهيمي، «أنا»، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: العدد ٢١، ص ١٣٥ ـ ١٥٤، ١٩٦٦.

غادر ابن باديس الحجاز متوجهاً إلى سوريا ولبنان ومصر، ومكث مدة في مصر قابل فيها بعض العلماء ومن أبرزهم الشيخ محمد بخيت المطيعي، وكان معاصراً لمحمد عبده ورشيد رضا. ورغم غزارة علمه إلا أنه لم ينل شهرة الشيخين، وقد نقل إليه رسالة من شيخه حمدان الونيسي. وكان من نتائج هذا اللقاء حصول الشيخ ابن باديس على إجازة علمية منه.

وبعد أن تجولنا في حياة ابن باديس الباكرة قليلاً يحسن بنا أن نتوقف لنتعرف إلى صفاته الخَلْقِيّة والخُلُقيّة وبعض مناقبه رحمه الله.

صفاته الخَلْقِيّة والخُلُقية:

إذا ذكرت ابن باديس لا أتمالك نفسي من تخيّل صورة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي عرف عنه صغر حجمه ودقة ساقيه حتى إذا استهزأ أو ضحك بعضهم من دقة ساقيه قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «ما تضحكون؟ لَرِجْلُ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحُد»[1]. فابن باديس رحمه الله ليس من أصحاب الطول الفارع ولا القصر المشين ولو أنه إلى القصر أقرب. كان أبيض البشرة جميل الطلعة، تحفه هيبة الإيمان يدركها من عرفه ومن لم يعرفه. يحكي أحد تلاميذ الشيخ أنه كان يسير في أحد شوارع

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد، انظر المسند ١/١١٤.

قسنطينة فلقيه أحد كبار الموظفين الفرنسيين ورئيس تحرير جريدة (لاديـاش كونستنتين La Dêpache Constantaine) فـارتبـك واضطرب، وحتى يزيل اضطرابه أسرع فتقدم من ابن باديس قائلاً: (أنت رجل عظيم، أعرّفك بنفسي، أنا لوسياني). وهناك قول للشيخ الإبراهيمي يؤكد هذه الهيبة، فقد كان ابن باديس يذهب إلى وَهْران لزيارة الإبراهيمي في مدينته وبين تلاميذه، والإبراهيمي معروف بسعة علمه وقدرته العجيبة على الحفظ، فكان الإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس فلا يتمالك نفسه حتى يقول: (ما أقوى نفوذ هذا الرجل!)[1]. ويضيف تلميذه الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس خمس سنوات ـ وهو الشيخ محمد الصالح رمضان ـ: (إن للشيخ عبد الحميد ابن بـاديس قوة روحيـة خارقـة سببهـا الجـانب الـروحي في حياته)[2].

كان لباس ابن باديس الثوب الجزائري المسمى (القندورة) ويضع على رأسه عمامة بيضاء. وكان يحـرص على ارتداء البرنس المنسوج قماشه في الجزائر. ويذكر أحد تلاميذه أنه بينما كان الشيخ يلقي درسه نظر إلى تلاميذه فرأى أحدهم يلبس برنساً مصنوعاً قماشه في فرنسا فقال له: (ما هذا البرنس؟ أما أنا

---

(١) محمد الصالح رمضان، مقابلة معه في منزله في الجزائر، في ١٥ نوفمبر ١٩٨٣. والشيخ رمضان من تلاميذ الجامع الأخضر وبعد تخرجه أخذ يدرّس هناك وسكن في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس لمدة خمس سنوات.

(٢) المرجع نفسه.

فأفضل الذي صنعته أمي على الذي صنعته ضَرّتها)[1].

وكان رحمه الله أنيقاً في لباسه، والأناقة ـ كما يقولون ـ موهبة وقد أوتيها رحمه الله. وكانت ثيابه لا تتجاوز الكعبين أبداً بل كانت أقصر من ذلك بقليل.

ومن صفاته رحمه الله تواضعه فقد كان أليفاً مألوفاً. وقد برزت صفة التواضع في حياته العلمية، فيقول أحد زملائه: إنه كان في زيارة لوهران، وعرضت قضية من القضايا فقال فيها بغير القول المشهور، ولما عاد إلى قسنطينة واستشار مراجعه تبين له أنه لم يكن على صواب، فكتب في الشهاب: إنني كنت مع فلان وفلان وتكلمنا في قضية ما، والحق ما قاله فلان وهو القول المشهور. ويقول الشيخ حمزة بوكوشة ـ راوي هذه القصة ـ: سألته لماذا كتبتَ في الجريدة وقد كان يكفيك لو بعثتَ رسالة إلى الشخص الذي اختلفت معه؟ فقال رحمه الله: (أردت أن يكون لكم درساً في الرجوع إلى الحق)، وأضاف: (تركت لكم مثلاً أنه إذا كان الإنسان عالماً يجب عليه أن يعيش للعلم)[2]. ومثال آخر على تواضعه أن أحد معاصريه قال: (لم أستطع طوال عمري أن أسبقه بالسلام)[3].

---

(١) علي مرحوم، مرجع سابق.

(٢) حمزة بوكوشة، لقاء معه في الجزائر، في ١٠ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٤ نوفمبر ١٩٨٣ م.

(٣) Belguedj, M.S. Ben Bodin et Le Mutazlizme, Revue De L'Occident Musulman De La Mediterranee No. 13 1er sen. 1973.

وقد كان ابن باديس عفيفاً زاهداً في الدنيا. تجلى هذا في مواقف كثيرة منها أنه كان يعمل رئيساً لجمعية التربية والتعليم في قسنطينة ولكنه لم يكن يتقاضى أي مبلغ من صندوق الطلبة على عمله، بل كان يكتفي بما يحصل عليه من اشتراكات الجريدة[1].

أما زهده فقد تمثل في انتقاله من بيت والده إلى غرفة بجوار مسجد قموش. وكان طعامه قليلاً لا يزيد على الكسرة واللبن وفنجان أو فنجانين من القهوة يومياً حيث لم يكن يكثر من شرب الشاي أو القهوة. وكان رحمه الله إذا دعي إلى طعام اشترط الاقتصار على صنف واحد من الطعام. وكان يسأل عن الكسكسي (الطعام أو النعمة) فإن وجده لم يأكل غيره[2]. ومع اشتهار هذا عنه وهو عدم الإكثار من الطعام أو الشاي والقهوة فقد ورد في كتاب أحد المؤرخين الجزائريين كلاماً على سبب موته بأنه كان عصبياً من جرّاء قرحة كان مصاباً بها.. وأنه كان يكثر من شرب القهوة والشاي[3]، مما جعلني أبعث برسالة إلى

---

(١) أحمد بن ذياب، مقابلة شخصية معه في البليدة، في ١٣ شوال ١٤٠٣ هـ = ٢٣ يوليه ١٩٨٣ م. وابن ذياب أحد تلاميذ الجامع الأخضر وبعد تخرجه عمل مدرساً ثم مفتشاً وهو أديب وشاعر.

(٢) علي مرحوم رحمه الله، لقاء معه في الجزائر، في ١٩ صفر ١٤٠٤ هـ = ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ م.

(٣) أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث: ص ٣٦.

الدكتور أحمد شرفي الرفاعي الذي توجه بالسؤال إلى الشيخ إسماعيل بورغيدة أحد المعمرين بقسنطينة الذين لازموا الشيخ عبد الحميد فأكد أنه لم يكن يكثر من ذلك ولم يُصب بالقرحة وإنما مات موتاً طبيعياً(١). وجميل ما وصفه به باحث فرنسي بأنه (كان لديه فقر مبتغى مستلهم من القرآن الكريم الذي يحذر الذين يكنزون الأموال)(٢).

ومن صفاته البارزة رباطة الجأش والشجاعة، وليس أدلّ على الشجاعة من وقوفه في وجه الاستعمار منذ بدأ التدريس في الجامع الأخضر، وليست الشجاعة فيما يظن البعض النقد العنيف للمحتل أو إلقاء الخطب الرنانة، بل كانت شجاعته من النوع المثمر حيث العمل الدؤوب المتواصل لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة. وظهرت شجاعته في مواقفه من أتباع الطرق الصوفية وانحرافاتهم العقدية والفكرية مع علمه بأن السلطات الفرنسية كانت تقف خلفهم تؤيدهم بالمال والمناصب.

أما القصص والأحداث التي ظهرت فيها رباطة جأشه وشجاعته فمنها أن الشيخ عبد الحميد كان يركب سيارة عامة ورآه طبيب فرنسي يعرفه فأحب أن يركب الشيخ معه في سيارته

---

(١) أحمد شرفي الرفاعي، مراسلة معه في ٢٥/ ١٢/ ١٩٨٣م. والشيخ إسماعيل بورغيدة من مواليد عام ١٩١١ م.

(٢) Belguedj, Ben Budin et Mutazlizme, op. cit.,

الخاصة، وفي الطريق اصطدمت سيارة الطبيب الفرنسي بسيارة أخرى، فأصيب الطبيب بالرعب وصرخ صرخة ظن منها الشيخ أن روح الطبيب قد خرجت، ولم يبد على وجه ابن باديس أي تأثر (وعلل الشيخ ذلك بفراغ قلبه ـ الفرنسي ـ من الإيمان لأن الإيمان يحفظ على المؤمن ثباته واطمئنانه عندما تحل به الملمّات)[1].

وإذا ذكرنا شجاعته فلا بد من ذكر موقفه حين كان في وفد المؤتمر الإسلامي الذي قابل رئيس الوزراء دلادييه، فتحدث المسؤول الفرنسي إلى الوفد مهدِّداً بقوة فرنسا، فرد عليه ابن باديس: (ونحن لدينا مدافع، إنها مدافع الله). وقد ذكر لي أحد تلاميذه أنه كان كثيراً ما يردد هذا البيت[2]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

وكذلك عندما يتحدث إلى تلاميذه حديثاً يستخدم فيه اللحن والإشارة ويقول:

ولقد لحنت لكم كيما تفهموا   واللحن تفهمه ذوو الألباب

ولعل من أهم صفات ابن باديس رحمه الله أن يهتم بوقته، وقد علّمنا الإسلام المحافظة على الوقت حين جعل يوم المسلم منظماً، فالصلاة لها أوقات محدودة يجب أن تؤدّى في وقتها عملاً بقوله تعالى: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً

---

(١) علي مرحوم، مرجع سابق.

(٢) أحمد بن ذياب، مقابلة معه، مرجع سابق.

موقوتاً ﴾[1]. وإن المسلم ليُسأل يوم القيامة عن عمره وعن شبابه كما حدّث بذلك الصادق المصدوق ﷺ في قوله: «لا تزلّ قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن ثلاث..» وكان أحدها: عن عمره فيما أفناه.

ولقد تميز ابن باديس في حياته كلها باحترام الوقت والنظام. فكان رحمه الله (رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته)[2]، فكان برنامجه اليومي مما يصعب على الكثير أن يقوم به، حيث يبدأ نهاره من قبيل صلاة الفجر بالمرور على مساكن طلاب الجامع الأخضر ليتأكد من استيقاظهم لأداء صلاة الفجر، وبعد الصلاة يشرع في التدريس حتى الشروق، فيتناول إفطاره، ويعود إلى التدريس حتى صلاة الظهر، ثم يعاود التدريس من صلاة العصر حتى ما بعد صلاة العشاء. وقد بلغت الدروس التي يُلقيها في اليوم الواحد خمسة عشر درساً. ولو لم يكن وقته منظماً لما استطاع أن ينجز كل هذه الأعمال التي لا يقدر عليها الجماعة الكبيرة من الناس.

وبالإضافة إلى اشتغاله بالتعليم فقد ساهم مساهمة كبيرة في إنشاء المدارس والمؤسسات الخيرية وجمعيات التجار وجمعيات الكشافة والجمعيات الرياضية والفنية وكثير غيرها مما سيرد ذكره في حينه إن شاء الله.

---

(١) سورة النساء: آية ١٠٣.
(٢) حمزة بوكوشة، مقابلة شخصية معه، مرجع سابق.

كل هذه الأعمال الكبيرة كانت تقوم بها نفس كبيرة بلا شك تكره المديح ولا تسعى إليه، بل ترفضه. ولو كان من الزعامات الحزبية أو الزعامات الهشة لامتلأت الصحف بمدحه في حياته. ولعل مقياس الزعامة الحقة ليس ما يُكتب عن الشخص أو القائد وهو حي بل بعد موته، وما كتب عن ابن باديس بعد موته يفوق ما كتب عن جميع الشخصيات الجزائرية مجتمعة. وقد اعترف له بهذه الصفة حتى الذين لم يكن على وفاق مع منهجهم، فصحيفة «النجاح» التي ساهم في تأسيسها وكتب فيها باسم القسنطيني[1] أوردت خبراً عن زيارته لوهران وأنها تلقت من بعض الكتاب (مراسلين غير معيّنين رسمياً) وصفاً لهذه الزيارة ولكن الجريدة لم تنشرها لأن ابن باديس كما تقول الجريدة (رغب منا أن نغفل إدراج كل ما يتعلق بمدحه لأنه لا يرى في المدح فائدة أمام الأعمال)[2].

وتكرر هذا الموقف حينما زار ابن باديس بعض جهات الجزائر، فكتب أحد المثقفين وصفاً للزيارة ضمّنه ملخصاً للدروس التي ألقاها ابن باديس لنشرها في الشهاب. فوافق ابن باديس على نشر ما فيه فائدة للقراء أما ما يتعلق بشخصه من مديح وإطراء فقد حذفه[3]. وأبرز دليل على هذه الخصلة أنه لما

---

(١) الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره: ص ٥٧.
(٢) النجاح: العدد ١١٩٠، ص ٢، يوم الأحد ٢٤، ربيع الأول ١٣٥٠ هـ = ٩ أغسطس ١٩٣١ م.
(٣) الشهاب: ج ٦ م ٥، غرة صفر ١٣٤٨ هـ = يوليه ١٩٢٩ م.

ختم تفسير القرآن الكريم وأراد علماء الجزائر إقامة احتفال بهذه المناسبة وطلبوا منه أن يخصصوا عدداً من الشهاب لتخليدها فسمح لهم شريطة أن لا يجعلوه مخصَّصاً لمدحه فوافقوا على هذا الشرط[1].

ومن أروع ما وصف به ابن باديس مقال كتبه مراسل جريدة فرنسية هي البتي ماتان Petit Matin ـ الذي كان يحضر حفلاً في تونس يوم ٢٩ مايو/ ١٩٣٧ م ـ أقيم بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاة البشير صفر أستاذ التاريخ بالجامعة الزيتونية وممن تلقى ابن باديس على يديه علم التاريخ، فمما جاء في هذا الوصف ما يلي: (والشيخ ابن باديس يمثل حقاً الزعيم الخطيب فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجهوري يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة عالية من التقدير. وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أما سُمعته فقد اخترقت البحار وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله وإنه لنعم الخلف للبشير صفر)[2].

لقد كانت حياة ابن باديس كتاباً مفتوحاً، ولعل شهادة كاتب فرنسي آخر تغنينا عن الإطالة في هذا الموضوع، ولا سيما أن

---

(١) الشهاب: ج ٤ م ١٤، ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٥٧ هـ = يونيه ويوليه ١٩٣٨ م.

(٢) الشهاب: ج ٥ م ١٣، جمادى الأولى ١٣٥٦ هـ = ١٠ يونيه ١٩٣٧ م عن البتي ماتان ٢٩ مايو ١٩٣٧ م.

هذا الكاتب أستاذ في جامعة ستراتسبورغ حيث يقول: (هذا الرجل الذي استطاع ألوف من مواطنيه رؤيته والحكم على حياته ذلك أن برنامج حياته اليومي يوضح لنا بجلاء شخصيته الحقيقية لأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يخدع الجميع كل الوقت. وهذه الأفعال والتصرفات المعروضة والمدعّمة بعدة شهود تكفي لأن تُصْدر عليه الحكم العادل، وأن نبقى على حذر من أولئك الذين لا يهتمون إلا بالمظهر ومجاراة الناس)[1].

---

(١) Belgudje, op., cit.,

ولعله جزائري عاش في فرنسا وكتب بالفرنسية واسمه بلقوش كما ذكر لي الدكتور سعد الله.

وصف مدينة قسنطينة

من المهم عند الحديث عن علم من الأعلام أن نعرّج بالحديث عن البيئة التي عاش فيها. فقد أوجزنا الحديث عن الجزائر وظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى حين ظهور الشيخ عبد الحميد بن باديس، ولعل من المناسب أن نذكر كلمة عن مدينة قسنطينة.

تقع قسنطينة في الجزء الشرقي من الجزائر وتبعد عن العاصمة بحوالي أربعمئة كيلومتر وهي قريبة من الحدود التونسية. وقسنطينة مدينة داخلية، ويعود إنشاؤها إلى القرن الثالث قبل الميلاد وكان يطلق عليها سبرتا ثم أعاد بناءها قسطنطين سنة ٣٠٦ م - ٣٣٧ م وأُطلق عليها اسم قسطنطينة، ولكن الجزائريين ينطقونها قسنطينة بحذف الطاء الأولى وعند النطق بها سريعاً تُقلب النون الأولى ميماً. وأصبحت قسنطينة مدينة إسلامية منذ بداية القرن الثامن الميلادي وظهر فيها النشاط الإسلامي في عهد الزيريين والحماديين وذلك بإنشاء المساجد والجوامع والزوايا والتكايا. ومن هذه الجوامع الجامع الكبير

ومسجد سيدي الكتاني ومدرسة الكتانية وجامع سوق الغـزل وجامع سيدي الأخضر وجامع سيدي قموش.

وتمتاز قسنطينة بتضاريسها الطبيعية فهي ممتدة فوق رؤوس عدد من الجبال. فأول ما يصادف القادم إليها صخور الوادي والغابات الموجودة في أعالي الجبال وجسورها الممتدة فوق هذه الوديان لتربط أجزاء المدينة. أما أحياؤها القديمة فهي: حي القصْبة وبه مسجد ومنازل وسوق وثكنة، وحي الطابية، وحي القنطرة، وحي باب القنطرة، وحي باب الجابية. ويتوسط هاته الأحياء سوق العصر ورحبة الصوف. وكانت المدينة محصّنة بسور منيع تتخلله ستة أبواب محروسة نذكر منها باب الحنانشة في شمال غرب المدينة وباب الرواح وباب الجابية وغيرها[١].

ومن المهم أن نذكر بعضاً من جسور قسنطينة؛ فهناك جسر باب القنطرة وقد بناه الأتراك، وهناك جسر سيدي مسيد وقد بناه الفرنسيون على ارتفاع ١٧٥ متر ويقدّر طوله بـ ١٦٨ متر وهو أعلى جسور المدينة، وجسر ملاح وهو ممر حديدي يبلغ طوله ١٢٥ متـر وعرضه مترين ونصفاً[٢].

أما مجتمع المدينة بعد الاحتلال فقد تكوّن من المسلمين واليهود (كانوا قبل الاحتلال) والأوروبيين، والأوروبيون منهم

---

(١) ولاية قسنطينة، دليل قسنطينة السياحي، أُصدر بمناسبة ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر في شوال ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م. ويُراجع كتاب محمد المهدي ابن علي شغيب، «أم الحواضر في الماضي والحاضر ـ تاريخ مدينة قسنطينة».

(٢) المرجع نفسه.

خليط من جنسيات مختلفة؛ فمنهم المالطي والكورسيكي والإيطالي والإسباني، (ولم يكن عند هؤلاء عداوة مكينة ضد المسلمين وبخاصة الإيطاليون منهم فهم أقرب إلى مخالطة الشعب، والمالطيون كان منهم مسلمون. أما التعصب الأوروبي فقد كان واضحاً في الجزائر ووهران وعنابة)(١).

وبالنسبة لوصف المدينة من الناحية العمرانية والاجتماعية فقد ذكرت جريدة «النجاح» وصفاً للمدن الكبرى قسنطينة ووهران والعاصمة الجزائر جاء فيه: (في قسنطينة والعاصمة ووهران وباقي أغلب المدن الكبرى تجد حومتين [حيِّين] أحدهما للنزهة والخلاعة وهي المأهولة بذوي الرفاهية وذوي المساكن الشاهقة، والأخرى مختصة بالأهالي تتراكم مساكنها على بعضها، ضيقة طرقاتها. وإذا أرخى الليل سدوله رأيت منعطف أنهجنا [شوارعنا] ظلاماً يتصادم فيه المارّون فكم من صاباط [زقاق] سلبت فيه أموال وأُزهقت فيه أرواح كما يعلم القارىء مما ينشر من الوقائع.

وكم رأيت أوساخاً تنبعث منها الميكروبات التي كانت سبباً في نشوء أمراض كثيرة ذلك الأمر الذي نزل بتونس أخيراً، ومع ذلك فإن الهِمَّة لم تكن متوجهة إلى مدافعة هذه الأخطار.

أما من جهة الأمن فإن الحومات [الأحياء] العربية دائماً مستهدفة لأخطار السلب والنهب والجرح والقتل لعدم كثرة الشرطة فقد تمشي بالليل نهجين [شارعين] أو ثلاثة ولم تعثر

---

(١) أحمد بن ذياب، مقابلة شخصية، مرجع سابق.

على شرطي يحرس الأمن العام)[1].

وقد تحدث مؤلف كندي عن إحساس عبد الحميد بن باديس بالغربة في مدينته التي احتل الأوروبيون الجزء الأجمل والأرقى فيها، وكيف كان يمر بالمسجد الجامع، وقد أصبح كاتدرائية، وما كان يولّد في نفسه هذا الإحساس من التفكير في القيام بعملٍ ما. ومع أهمية الوجود المادي للأوروبيين فإن هناك جانباً آخر هو الوجود المعنوي وما أحدثه من تأثير في حياة كل مسلم في المدينة. ويشير الكاتب أيضاً إلى القلعة التي بناها الحفصيون وكانت موقع إحدى المعارك التي دارت بين الجزائريِّين والفرنسيين والتي دمرها القائد الفرنسي الكولونيل كومب Combes سنة ١٨٣٨ م/ ١٢٥٤ هـ. ويضيف المؤلف منظر الأوروبيين في القطاع الجديد من المدينة حيث يملؤون الشوارع يتفرجون على الأهالي. ويرى الجزائريون هؤلاء مختلطين نساءً ورجالاً وتسير نساؤهم متبرجات ويتعاطون الخمور التي تنبعث روائحها منهم. وفي هذه المنطقة لم يكن الجزائريون يلقون الترحيب. ومع ذلك كان يدخلها عدد كبير منهم ولكنهم يعودون في آخر النهار بعد أن يكونوا قد قاموا بخدمة الأوروبيين[2].

---

(١) عبد الحفيظ الهاشمي، النواب البلديون والحارات العربية، النجاح، قسنطينة: عدد ٨٣٦ في ١٠/٨/١٣٤٨ هـ = ١٠/١/١٩٣٠ م.

(٢) Andre Dirlik, abdul Hamid Ben Badis (1889 - 1940), Ideolgist of Islamic Reformism and Leader of Algerian National Movement, (ph. D Thegis) p. 141.

الفَصْل الثَاني
أَعمَالُ ابن بَادِيس وَآراؤُه

التعليـــم:

عندما التقى ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة في حج عام ١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م اتفقا أنهما حينما يعودان إلى الجزائر سوف يبدآن حركة علمية يكون فيها التركيز على الكيف لا على الكم. ونظراً لأهمية هذا الموقف نورد هنا نص كلمات الإبراهيمي رحمه الله حيث قال: (كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا)[١]. ولما كان الهدف من هذا الكتاب الترجمة لابن باديس إحياءاً لذكراه ووفاءاً وليس تأريخاً لأعماله ومنهجه ـ وتلك موجودة في مظانها ـ فإن الحديث عن أعماله سيكون فقط لما نراه فريداً وطريفاً في بابه.

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي، «أنا»: ص ١٤٣.

بدأ ابن باديس نشاطه التعليمي في المسجد الكبير بقسنطينة فور عودته من تونس عام ١٣٣٠ هـ = ١٩١٢ م، ثم انتقل إلى المسجد الأخضر الذي بناه حسين باي عام ١١٥٦ هـ، وكتب في صدر المسجد بجوار المحراب أنه بناه للعبادة والعلم. وتلك مسألة لا تحتاج إلى تدوين أو تسجيل فمتى كان المسجد لغير هذا إلا عندما أصبح أصحاب المساجد ليسوا أصحابها. بل ما أجمل بيان ابن باديس في إجلاء هذا الجانب إذ يقول: (المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي ﷺ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم..)[1].

إن المناهج والكتب التي أقرأها ابن باديس على أهميتها وعظيم شأنها إلا أنها في نظرنا تحتل مرتبة ثانية بعد أسلوب التعليم والتربية الذي اتبعه ابن باديس. فقد بدأ دروسه بعدد محدود من التلاميذ حتى مع مرور الأيام أصبح هؤلاء التلاميذ طبقات، وتكوّنت لهم مؤسسة تعليمية شاملة أشبه ما تكون بجامعات اليوم: تقدّم المسكن والمأوى، والطعام والدواء،

---

(١) عبد الحميد بن باديس، تقرير في التعليم المسجدي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام ـ نادي الترقي بالجزائر عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م. أعيد نشره مصوراً عن الأصل: ص ١٠٤.

والرعاية الاجتماعية والنفسية لطلابها. لقد سار ابن باديس بالمسجد الأخضر خطوات عظيمة حتى أصبح مدرسة لتكوين القادة، وذلك بتربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم من الوهن والضعف وتعويدهم على الإحساس بأن مسؤوليتهم ليست مجرّد تلقّي العلم وتلقينه بل إنقاذ أمتهم مما وصلت إليه. ولم نذكر الجامعات الإسلامية كالزيتونة والقرويين والحرمين لأن تلك المعاهد كان يتخرج فيها العلماء وينبغ منهم أحياناً بعض القادة. أما الجامع الأخضر فإنه شابه هذه المعاهد بروح ابن باديس وفكره. وليس القصد من القادة الذين يتسنّمون المناصب والزعامة فإنهم قادة بالفعل لما تحملوه في سبيل إحياء الشعب الجزائري بعد سنين طويلة من الاحتلال.

ولا تحسبن ما وصفنا به مدرسة ابن باديس مبالغةً أو إعجاباً عاطفياً فإن الطالب حين يلتحق بالمسجد الأخضر يجد نفسه في مؤسسة تعليمية تحرص عليه علمياً وأخلاقياً واجتماعياً ومادياً حِرْص والديه أو أكثر، وما جولات ابن باديس في القطر الجزائري شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلا لبناء الجزائر على أسس مقتبسة من روح الإسلام وحضارته. حتى إذا تيسر له عام ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م أن يضمّ الجامع الأخضر من أبناء الجزائر من يمثلون جميع جهاتها بدأ العمل الفعلي لصهرهم في بوتقة الإسلام الذي لا يفرّق بين عربي وأمازيغي أو كتامي وصنهاجي وزناتي أو عربي من الحضر أو من البدو. . . ولا يفرق بين متبع لمالك أو لأبي حنيفة.

لم يكن ابن باديس مجرد أستاذ بل كان أخاً أكبر لكبيرهم، وأباً لصغيرهم ورفيقاً لمن قارب سنُّه سنَّه. فكان من اهتمامه بالتلاميذ أنه كان يستقبلهم حين وصولهم إلى قسنطينة ويودعهم واحداً واحداً حين سفرهم بعد انتهاء السنة الدراسية. يوصيهم بنشر العلم والسلوك الذي يمثل الإسلام في أبهى صورة وأجملها حتى يكونوا دعاةً صادقين في دعوتهم. أما أثناء وجودهم في قسنطينة فقد اختار العرفاء ليكونوا أولاً عوناً لزملائهم في حل مشكلاتهم، وثانياً ليراقبوا سلوكهم ولا سيما أنه كان بقسنطينة جالية أوروبية تعيش حياتها الأوروبية اللاهية المارقة. وكان في المدينة حيّ لليهود تشيع منه المفاسد والفجور. ومع وجود العرفاء والأساتذة المساعدين فقد كان رحمه الله يتعهد طلابه بنفسه حيث يستيقظ قبل الفجر ويمرّ عليهم في مقر سكناهم.

وهناك مسألة هامة تغفل عنها برامج التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي اليوم رغم معرفة المربِّين لها وهي الصلة بين المدرسة والبيت، وقد أدرك هذا ابن باديس فكان يلتقي بالآباء في أماكن عملهم ويخصّص لهم جزءاً من وقته فيلقي عليهم الدروس فيه.

ولما كان تلاميذ الجامع الأخضر ليسوا من قسنطينة وحدها فقد كانت رحلاته التي سنتكلم عليها فيما بعد تؤدي هذه المهمة فهو غالباً ما يتعرف إلى الآباء قبل أن يلتحق أبناؤهم بالجامع الأخضر، وكم أقنع شيخ زاوية أو رئيس قبيلة أن يبعث ابنه ليتلقّى التعليم في الجامع الأخضر، ومن أبرز هؤلاء الفضيل

الورتلاني والسعيد الصالحي وعمر دردور وغيرهم.

لم تكن التربية عند ابن باديس مَلء أذهان الطلاب بالمعلومات بل تعدّتها إلى التربية المتكاملة التي تؤدي إلى رفع مستوى الوعي الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي. وهذا ما أشار إليه أحد الباحثين في تعليقه على إدخال مقدمة ابن خلدون في مناهج الجامع الأخضر[1]، ذلك أن ابن خلدون عاش حياة سياسية حافلة.

كذلك اهتم ابن باديس بالبيئة فقد كانت الكتب المصرية هي التي يتم تدريسها في أنحاء الجزائر المختلفة فنادى ابن باديس بإعطاء هذه المسألة ما تستحقه من العناية والاهتمام.

إن اهتمام ابن باديس بالجوانب المختلفة من الشخصية الجزائرية قادته إلى التفكير بالتدريب العسكري فكان يسأل تلاميذه من منكم أدى الخدمة العسكرية فيطلب منهم أن لا ينسوا الرمي، وينبههم إلى أن البلاد ستحتاج إليهم يوماً ما. وكان ممن أدى الخدمة العسكرية الفضيل الورتلاني[2]. وقد ظهر هذا عندما أُسست جمعية شباب المؤتمر الإسلامي واتخذت النظام العسكري في زي أعضائها وفي طريقة تنظيمها.

ولندرك أهمية حركة ابن باديس العلمية يجدر بنا أن نعرض

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره: ج ١ ص ١١٧.

(٢) أحمد حمّاني، هل كان ابن باديس يفكر في الثورة ويعمل لها؟ العصر: العدد ٨٥ في ٥ رجب ١٤٠٣ هـ = ١٨ أبريل ١٩٨٣ م.

لبعض الإرهاصات التي سبقت ظهور ابن باديس وواكبت بدء نشاطه، لنرى مكانة ابن باديس بين علماء الجزائر المعاصرين، وكيف أثمرت جهوده وبقيت آثارها إلى اليوم وإلى ما شاء الله لها أن تبقى. ففي نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي (القرن الرابع عشر الهجري) بدأت تباشير النهضة تعم المشرق الإسلامي بظهور حركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وقد وصلت آثار هذه النهضة إلى المغرب العربي في صور عدة منها: زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر عام ١٩٠٣م، ثم توالي وصول جريدة المنار. وأما غيرها من الصحف الإسلامية فقد كانت الجزائر تستقبل على استحياء وبسرية صحفاً كثيرة مثل اللواء، والمؤيد، والفتح، والزهراء، والأهرام وغيرها. وبالرغم من صدور عدد من القرارات الفرنسية يمنع دخول هذه الصحف أو بعضها إلا أنها كانت تجد لها طريقاً مع الحجاج أو البريد أو الطلاب الذين ينتقلون بين مصر والجزائر، وبين تونس والجزائر[١].

أما العلماء الجزائريون الذين ظهروا في أوائل هذا القرن فمن أبرزهم «شيخ الجماعة» الشيخ عبد القادر المجاوي الذي حمل لواء الإصلاح ضد الخرافات والبدع التي لحقت بالدين الإسلامي، وكان له إنتاج فكري هام أبرزه كتاب «إرشاد

(١) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧م - ١٩٣٩م: ص ١٢.

المعلمين» الذي طبع في مصر، وكتاب آخر بعنوان «الاقتصاد السياسي» وقد طبع في الجزائر. وكان من أعماله أيضاً التدريس حتى تخرّج على يديه عدد هام من العلماء نذكر من بينهم الشيخ حمدان الونيسي، والمولود بن الموهوب، وأحمد الحبيباتي[١].

كذلك برز الشيخ عبد الحليم بن سماية في مجال الإصلاح، وهو الذي رافق الإمام محمد عبده في زيارته للجزائر، وكانت بينهما مراسلات هامة ذكرها محمد رشيد رضا في تاريخ الإمام. ويذكر لابن سماية أنه امتنع عن الفتوى بجواز محاربة الجزائريين إلى جوار فرنسا ضد الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى[٢].

وهناك الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة الذي كان حريصاً على أن يتصل بروافد الثقافة من المشرق، ومن أبرز مؤلفاته «الاكتراث في حقوق الإناث»، وكتاب «إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام»، وقام بتحقيق تفسير الشيخ عبد الرحمٰن الثعالبي «الجواهر الحسان» وله أعمال أخرى مفيدة[٣].

---

(١) حمزة بوكوشة، شيخ الجماعة عبد القادر المجاوي، **الثقافة**: العدد ١٠ في رجب ١٣٩٢ هـ = سبتمبر ١٩٧٢ م.

(٢) رابح، مرجع سابق: ص ١٠٩.

(٣) سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية في الجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة، مجلة كلية الآداب جامعة الجزائر: عدد ١ س ١، ١٩٦٤ م.

ومن العلماء أيضاً أبو القاسم الحفناوي (١٨٥٢ ـ ١٩٤٢ م) = (١٢٦٨ ـ ١٣٦١ هـ)، ومن أهم أعماله موسوعته المسماة «تعريف الخلف برجال السلف» ضمّنها تراجم لعلماء وأدباء ومؤرّخي الجزائر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. وقد ظل طوال حياته يمارس التعليم والتأليف والبحث[١].

وظهر أيضاً الدكتور محمد بن أبي شنب (١٨٦٩ ـ ١٩٢٩ م) = (١٢٨٦ ـ ١٣٤٧ هـ)، ومن أبرز أعماله تحقيق بعض كتب التراث، كما عمل أستاذاً للأدب العربي في كلية الآداب بجامعة الجزائر وشارك في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد في الجزائر عام ١٩٠٥[٢].

هذا النشاط العلمي المبارك الذي مهّد لظهور حركة ابن باديس كان يسير جنباً إلى جنب مع حركة فكرية تدور في فلك فرنسا. إنها الحركة التي كانت تطالب بالمساواة مع الفرنسيين بل والاندماج التام في فرنسا، وكان لهذه الفئة صحافتها الخاصة، وأبرزها صحيفتا صوت الأهالي La Voix des Endigenes وصوت المتواضعين La Voix des Humbles. وقد ظل هذا التيار قوياً حتى بعد انتشار حركة الشيخ عبد الحميد بن باديس. حتى إن أحدهم كتب ينفي وجود وطن جزائري ويؤكد أنه فرنسي وأمته هي الأمة الفرنسية، فرد عليه ابن باديس بأن الأمة

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه.

الجزائرية موجودة ومتكونة منذ أقدم الأزمان، وأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت أن تكون كذلك. ولم تسع فرنسا إلى زيادة أفراد هذه الفئة وإنما سعت إلى تمكينهم وتقوية شوكتهم بما مكنت لهم من المناصب والمكانة القيادية في المجتمع.

بدأ ابن باديس عمله فردياً، ولكنه كان يخطط إلى الانتقال إلى العمل الجماعي المنظّم. وكان أوّلَ برهان على هذا التخطيط لقاؤه بالإبراهيمي في المدينة المنورة الذي أثمر عن إعداد عدد كبير من التلاميذ ليكونوا جنوداً في جيش الدعوة الإسلامية. وقبل أن ينشىء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م) بسبع سنوات فكر في إنشاء جمعية الإخاء الإسلامي من علماء قسنطينة. ولما لم تتهيأ الظروف لمثل هذه الجمعية ظلت الفكرة في ذهنه، فبدأ بالدعوة إليها بعد التفكير في الجمعية الأولى بسنة منذ الأعداد الأولى لجريدة الشهاب.

وحتى لا يضيع الوقت قبل أن تنشأ جمعية تضم علماء الجزائر من جميع أرجائها قام بتأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م. وصادقت الحكومة على قانونها الأساسي في مارس ١٩٣١ م شوال ١٣٤٩ أي قبل تأسيس جمعية العلماء بشهرين. وكان هدف هذه الجمعية وفقاً لما جاء في القانون الأساسي: **نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف الدينية**

والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين. وأما الوسائل الموصلة لهذه الأهداف فهي تأسيس مكتب للتعليم ليدرس فيه الذين لا يجدون مكاناً في المدارس الفرنسية، وليقدم التعليم الإسلامي للذين يتلقون العلم في المدارس الفرنسية. وكذلك إنشاء ملجأ للأيتام حماية لهم من الوقوع في أيدي المنصِّرين، ونادٍ للمحاضرات لنشر الثقافة الإسلامية لمن لا يتمكنون من حضور الدروس في المساجد، ومعملٍ للصنائع تنبيهاً للأمة على أهمية الصناعة وللقضاء على البطالة، وأخيراً إرسال التلاميذ على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى[1].

وقد اختير الشيخ عبد الحميد رئيساً لهذه الجمعية، وظل يرعاها ويهتم بها حتى إذا كان عام ١٩٣٨ م (١٣٥٧ هـ) وأصبح هناك عدد من الخرِّيجين فكّر في إرسالهم إلى مصر وسوريا، وقد تم إرسال بعثة إلى مصر وكان يشرف عليها الفضيل الورتلاني، وكتب إليه رسالة حول أمور البعثة جاء فيها:

(وإن البعثة الأزهرية تتوقف على أمرين إذن السفر والنفقة؛ فأما الإذن فقد ذكرتم أنه سهل الحصول عليه من هنا لكم، وأما النفقة فالجمعية غير مقتدرة عليها الآن لأن ماليتها لا تدخل إلا في سبتمبر إن شاء الله. فأريد منكم أولاً أن تتحققوا التحصيل على الإذن من هنالكم وأن تعرّفوني بما يلزم كل تلميذ لنفقة سفره لأنظر إذا كان يمكنني تحصيل المطلوب.

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره: جـ ١ ص ١١٤ ـ ١١٥.

أما أعضاء البعثة إن شاء الله فهم المشايخ: الفضيل الورتلاني، إسماعيل أعراب، محمد الغسيري، أحمد حمّاني، مصعب بن سعد الجيجلي. أو بعضهم عند العجز عن كلهم).

وفي الجزء الثاني من الرسالة تحدث عن البعثة الشامية واختياره أن تكون من جمعية التربية والتعليم القسنطينية، وتتكون من التلاميذ والتلميذات وأن يكون الطلب للإذن إما من جمعية العلماء أو جمعية التربية فهما كشيء واحد[1].

تعليم المرأة:

أدرك ابن باديس رحمه الله أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وشطره يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم الأجنبي سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها. وقد كتب ابن باديس كثيراً عن المرأة، ولعلنا نقتطف بعضاً مما كتبه في هذا المجال حيث كتب في أحد مقالاته مؤكداً (أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن)[2]. ويقول في مناسبة أخرى: (لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم وِرْدٌ صفاء للرجال ومنهلٌ

---

(١) مصورات لرسائل الشيخ عبد الحميد بن باديس حصلتُ عليها من الدكتور عمّار الطالبي ـ الملاحق.

(٢) الشهاب: ج ٨ م ١١، غرّة شعبان ١٣٥٤ هـ = نوفمبر ١٩٣٥ م.

كدر للنساء؟ هل له تأثيران حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث؟)[1].

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس في هذا السبيل فإنه لما تأسست جمعية التربية والتعليم حرص رحمه الله أن يتضمن قانونها الأساسي أن يكون تعليم البنات مجاناً (سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها وذلك تشجيعاً لهن على الإقبال على الدراسة)[2]. وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصياً بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة.

ولم يكن كافياً أن تتعلم الفتيات الصغيرات فقد خصّص دروساً للنساء في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وكن يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهن جنبات المسجد المخصصة للنساء[3].

ولنا أن نتساءل لماذا كل هذا الاهتمام بتعليم المرأة؟

إن داعية كابن باديس لم يكن ليخفى عليه ما يدبَّر للمرأة

---

(١) المنتقد: العدد ٨ في ٣٠ محرم ١٣٤٤ هـ = ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ م.
(٢) الشهاب: ج ٢ م ٧ ص ١١٥ ـ ١١٧، غرة شوال ١٣٤٩ هـ = مارس ١٩٣١ م.
(٣) Belguedji M.S. Ben Badis et Le Mutazlizme op., cit.,

المسلمة خُفْية وعلانية. ولم يكن منعزلاً بعيداً عن ساحة المجتمع. فكما كان بعض الجاهلين بالإسلام يحرصون على إبقاء المرأة جاهلة، كان في الطرف الآخر من يدعوها إلى الخروج غير المنضبط، بل وتلقِّي العلوم الغربية. فقد أدركت الدراسات الاستشراقية التنصيرية والاستعمارية ما يمكن أن يؤديه تعليم المرأة تعليماً غربياً من تحولات اجتماعية نحو التغريب. فما إن صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» حتى صفّقوا له وهلّلوا. وكانوا يدركون أن التخريب يكون أبلغ إذا كان من الداخل، فقد ذكرت الوثائق الفرنسية (١) أهمية كتاب الطاهر الحداد «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» الذي نادى فيه بأن الشريعة الإسلامية لم تكتمل في عهد صاحب الرسالة ﷺ وأن المجال مفتوح لمزيد من التشريعات بخصوص المرأة بإعطائها مزيداً من الحقوق وبمعنى أدق تقليد المرأة الغربية(٢). وانطلقت بعد ذلك الصحف الفرنسية تدعو إلى تعليم المرأة الجزائرية التعليم الغربي، ومن ذلك ما كتبته صحيفة صدى تلمسان L'Eche Detlemçan في إجابة للمحرر عن تعليم المرأة الجزائرية بقوله: (نعم ويكون أجدى إذا كان باللسان الفرنسي) فجاء ردّ ابن باديس عليه: (نعلم ونجزم أن تعليم المرأة إذا لم

---

(١) Rapport Sur La Situation Politique et Administrative Des Indigenes De L'Algerié Au 31 Janvier 1931 (9H11).

(٢) الطاهر الحداد، امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع: ص ٢٠، ط ٤، تونس.

يكن بلسان قومها ـ بلغت من درجات العلم ما بلغت ـ يكاد يضلّها عن الطريق المستقيم)[1].

وقد تقدم ابن باديس خطوة رائدة في تعليم المرأة حيث إنه بعد أن أنهت بعض التلميذات دراستهن في مدرسة جمعية التربية والتعليم القسنطينية فكّر في إرسالهن إلى مدرسة جمعية دوحة الأدب السورية، وبعث رسالة بهذا الخصوص إلى رئيسة هذه الجمعية جاء فيها: (يسرّك يا سيدتي أن تعرفين (تعرفي) أن بالجزائر نهضة أدبية تهذيبية تستمدّ حياتها من العروبة والإسلام، غايتها رفع مستوى الشعب العقلي والأخلاقي. ومن مؤسسات هذه النهضة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة. ولما علمت إدارتها بجمعيتكم المباركة بما نشرته عنها مجلة «الرابطة العربية» رغبت أن ترسل بعض البنات ليتعلمن في مدرسة الجمعية فهي ترغب في حضرتكم أن تعرفوها بالسبل إلى ذلك)[2].

الرحلات:

من الصعب تقسيم نشاطات ابن باديس إلى نشاطات تعليمية وأخرى سياسية واقتصادية وغير ذلك، بيد أن ضرورة البحث تقتضي ذلك، فالتعليم مثلاً يمكن إدراجه تحت النشاط السياسي

---

(١) الشهاب: العدد ١٠٤ في ٧ محرم ١٣٤٦ هـ = ٧ يوليه ١٩٢٧ م.

(٢) رسالة من الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى رئيسة جمعية دوحة الأدب بدمشق مؤرّخة في جمادى الثانية ١٣٥٧ هـ = أغسطس ١٩٣٨ م.

ذلك أن الشمولية في المنهاج الإسلامي تمثلت في جميع أعمال ابن باديس. ومن نشاطات ابن باديس التي استوعبت أهدافاً تعليمية وسياسية في آن واحد رحلاته عبر القطر الجزائري. فقد بدأ هذه الرحلات بعد عودته من الحج عام ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣ م حيث كان يشتري تذكرة قطار سنوية. وكان الهدف الأول من هذه الرحلات التعرف على بلاده التي سينشر فيها العلم والمعرفة، ويبعث فيها عزة الإسلام والتمسك بالشخصية الجزائرية الإسلامية. وإن رحلات ابن باديس وحدها تستحق دراسة منفصلة لما حوته من تجربة غنية. وقد فطن دعاة آخرون في العالم الإسلامي إلى أهمية هذه الرحلات ومنهم الشيخ حسن البنا الذي زار أكثر من ألفي قرية مصرية[1].

أما أعمال ابن باديس في هذه الرحلات فيمكن تلخيصها بما يلي[2]:

١ ـ التعرف على وطنه الجزائر لأن المشاهدة خير من السماع لمعرفة البيئة التي سيدعو فيها ومن ذلك أيضاً الالتقاء بالعلماء وطلبة العلم وحثهم على نشر الدعوة.

٢ ـ مقابلة شيوخ الطرق الصوفية وإجراء الحوار معهم للرجوع إلى الكتاب والسنة في زهدهم وتصوفهم، وإقناعهم بنبذ

---

(١) الشيخ عطية صقر في برنامج في التلفزيون المصري بعنوان «منبر الرأي».

(٢) محمد الصالح رمضان، مقابلة شخصية معه في الجزائر، في ١١ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ م. أشار إلى بعض هذه الفوائد.

الخرافات، وتشجيعهم على إرسال أبنائهم لتلقي العلم على يديه في قسنطينة.

٣ ـ التعرف إلى المسؤولين الفرنسيين، وإن كان هؤلاء يتغيرون بين الحين والآخر فهو يتعرف إليهم ويوضح لهم أهداف حركته وأهداف جمعية العلماء فيما بعد.

٤ ـ معرفة المشكلات التي تعاني منها المناطق المختلفة والعمل على حلها بقدر المستطاع، وتنبيه المناطق الأخرى إلى الاحتراز من مثل هذه المشكلات، وذلك بإلقاء دروس عامة حولها، وقد تكون هذه الدروس بناء على اقتراح بعض علماء المنطقة التي يزورها.

٥ ـ التعرف على نشاط التنصير والاستشراق والاستعمار في جذب بعض الجزائريين نحو فكره وثقافته ودعوته، وإبطال كيد هؤلاء بالتأكيد على وحدة الجزائر المنبثقة من الإسلام. فها هو عالم من قسنطينة (شرق الجزائر) يزور الغرب والجنوب والشمال، ويشعر بأنه بين أهله في كل مكان ليؤكد هذا الإحساس لدى الشعب الجزائري.

٦ ـ زيارة إخوانه الجزائريين في أماكن عملهم كالمؤسسات التجارية والمعامل والمصانع والمزارع وعدم الاقتصار على المسجد والمدرسة. وقد يحضر في هذه الرحلات مناسبات اجتماعية مختلفة كالزفاف والختان والعقيقة ويستفيد منها في توجيه الحديث إلى الحاضرين. وهذا يؤكد دور الداعية وأنه لا ينتظر أن يأتيه المدعوّون، وكذلك أن التهديد بمنعه من

الوعظ في المساجد لن يوقف دعوته فهناك أماكن كثيرة يمكن أن تنطلق فيها الدعوة إلى الله.

ويلاحظ أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يكتب عن جميع رحلاته. بل سجل بعضها بقلمه وترك تسجيل بعضها الآخر لبعض أهالي المناطق التي زارها. أما وفود الجمعية ورحلاتها التي يمكن عدّها بدون تردد امتداداً لرحلاته فقد قام هو بتسجيل بعضها وسُجِّل البعض الآخر بأقلام أحد أعضاء وفد العلماء أو تلاميذه ممن كانوا يرافقونه في هذه الرحلات أو بقلمه هو.

أما الموضوعات التي كان الشيخ يتحدث فيها فعادةً ما تنبع من حاجة المنطقة التي يزورها. ففي الميلية اقترح عليه أحد رجال العلم فيها أن يلقي درساً في تفسير قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرّقوا ﴾ [آل عمران:١٠٣]. ذلك أن هذا العالم شعر بحاجة قومه إلى التكاتف والاتحاد بدل الفرقة والاختلاف[1]. وفي زيارة أخرى لمدينة ثانية تحدث في قوله تعالى: ﴿ تبارك الّذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ ليكونَ للعَالَمِينَ نذيراً ﴾ [الفرقان: ١٠٠][2]. وفي البليدة مثلاً رأى الشيخ انتماء الناس لمختلف الطرق الصوفية، فألقى درساً بالجامع الأعظم في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّينِ ما وَصّىٰ

(١) الشهاب: ج ٦ م ٥، غرة صفر ١٣٤٨ هـ = يوليه ١٩٢٩ م.
(٢) الشهاب: ج ١٠ م ٥، جمادى الثانية ١٣٤٨ هـ = نوفمبر ١٩٢٩ م.

بِهِ نُوْحاً. . ﴾ [الشورى: ١٣] وكان هذا أيضاً باقتراح أحد المريدين[1].

ولئن ذهبنا لإحصاء الجهات التي زارها ابن باديس من أرض الجزائر فإنها تكاد لا تترك بقعة دون أن يكون له فيها ذكر، وتلك والله الدعوة التي لا تقف في مكانها تنتظر المدعوين أن يأتوها بل تنتقل هي إليهم.

الصحافة:

أنشأ المحتلون الفرنسيون بعض الصحف العربية في الجزائر منذ وطئت أقدامهم أرض الجزائر؛ وذلك لنشر البلاغات الرسمية، والبيانات الحكومية. ولم تكن هذه الصحف على مستوى عالٍ من التحرير والإخراج، فقد ظهرت فيها عيوب مختلفة كضعف اللغة وركاكة الأسلوب. أما الصحافة الفرنسية فقد تأخرت قليلاً بعد الاحتلال ريثما يتم استقرار بعض المستوطنين الذين قاموا بتأسيس صحف ودوريات استمر بعضها حوالي قرن من الزمان. ولم يبدأ ظهور الصحافة العربية الجزائرية إلا في أوائل القرن العشرين وغالبها بجهود فردية. وقد كان تأثر هذه الصحف واضحاً بالصحف المشرقية التي كانت تصل إلى الجزائر كالعروة الوثقى، والمنار، والمؤيد، واللواء، والفتح، والأهرام، والمقطّم، وغيرها.

وجاءت نهاية الحرب العالمية الأولى لتظهر أولى الصحف

---

(١) الشهاب: ج ١ م ٨، غرة ربيع الثاني ١٣٥١ هـ = أغسطس ١٩٣٢ م.

الجزائرية القوية ألا وهي جريدة «النجاح» التي تأسست عام ١٣٣٧ هـ = ١٩١٩ م. فساهم فيها ابن باديس تأسيساً وتحريراً. وكانت مقالاته تظهر باسم مستعار هو القسنطيني والعبسي والصنهاجي، ولمّا رأى أن هذه الصحيفة غير قادرة على إحداث الهزة العنيفة لإيقاظ الشعب الجزائري كما تصور هو، تركها ليؤسس صحافته الخاصة به.

وبالنسبة لتركه جريدة «النجاح» فمن الضروري أن نوضح أمراً هاماً وهو أن هذه الصحيفة لم تؤيد الاستعمار وتقف في وجه الإصلاح إلّا في السنة الثانية لتأسيس جمعية العلماء ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م فقد كانت تورد أخبار الجمعية في سنتها الأولى باهتمام وتقدير بالغين. أما أخبار الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد كانت موضع رعاية من الصحيفة حتى ذلك التاريخ، وهناك من أخبار ابن باديس ما انفردت به صحيفة النجاح.

ليس المقصود بهذا المبحث أن نؤرخ للصحافة الجزائرية أو لنشاط الشيخ عبد الحميد بن باديس الصحفي فقد نال ذلك عناية الباحثين الجزائريين أمثال محمد ناصر في كتبه المختلفة[1]. ولكننا سنتعرض لبعض المواقف والتحليلات التي نرى أنها لم تنل رعاية بعض هؤلاء الكتاب.

---

(١) الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ ـ ١٩٣٩ م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١ م؛ **المقالة الصحفية الجزائرية ١٩٠٣ ـ ١٩٣١ م**، جزآن، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٨؛ وكذلك كتاب الزبير سيف الإسلام بعنوان **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ٦ أجزاء؛ وغيرها.

لقد سعى ابن باديس إلى تحقيق عـدد من الأهداف من مشاركته في الحركة الصحافية الجزائرية نوجزها فيما يلي:

١ ـ المشاركة في هذه الحركة بالكتابة في القضايا التي تهم الشعب الجزائري.

٢ ـ تأكيد الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين وذلك بالقيام بنشر الوعي الديني، والذبّ عن العقيـدة الإسلاميـة مما خالطها من المعتقدات الباطلة.

٣ ـ جعل الصحافـة منبراً حـراً لتبادل الآراء والأفكـار، وفتح المجال أمام الناشئة وتعويدهم على الكتابة السليمة الهادفة.

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس لتحقيق هذه الأهداف فقد كانت أولاً: المشاركة الفردية في جريدة «النجاح» حتى إذا علم أنها لن تستطيع تحمل مسؤولية حملته العنيفة على العقائد الفاسدة التي انتشرت بين أفراد الشعب الجزائري قام بتأسيس صحيفة «المنتقد» في ١١/ ١٢/ ١٣٤٣ هـ = ٢/٧/ ١٩٢٥ م وكتب في افتتاحيتها: (وسنسلك في انتقادنا طـريق الحقيقة المجردة والصدق والإخلاص والنـزاهة والنـظافة في الكلام..) ويمضي قائلاً: (هذه مبادئنا هي مبادىء الصحافة الحرة التي هي قوة لا غنى لأي أمة عنها، ولا رقي لأمة ناهضة بدونها)[١]. أما الخطوات الأخرى فستظهر في الصفحات التالية.

---

(١) ابن باديس، المنتقد: العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ = ٢ يوليه ١٩٢٥ م.

مجالات نشاطه الصحفي:

كما ذكرنا سابقاً أن نشاطات ابن باديس يصعب تقسيمها فكذلك نشاطه الصحفي الذي يأخذ من الإسلام شموليته، ولكن لضرورة البحث يمكن تقسيم مساهمته في الصحافة إلى عدة أقسام:

أولاً: مجالس التذكير: وهذه وإن كان بالإمكان جعلها تحت الكتابات الدينية ولكن لأن الإسلام ليس ديناً بالمعنى المعروف عند الغرب أو ما أصبح يفهم من كلمة دين في الوقت الحاضر لدى كثير من المسلمين فلذلك تركنا العنوان كما هو. ومجالس التذكير نوعان: أحدهما من كلام الحكيم الخبير وهي عبارة عن بعض دروس التفسير التي ألقاها ابن باديس في درسه الليلي في المسجد أو ما ألقاه على تلاميذه. والثاني من كلام البشير النذير وهي عبارة عن شرح للأحاديث النبوية الشريفة. وكان ابن باديس يختار من الآيات ما يشعر أنه ينقل من خلاله رسالة إلى مستمعيه وقارئيه حسب مقتضى الحال. وفي تفسيره للآيات يتعرض للحديث عن الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية. ولئن كانت هذه الأحاديث قد جمعت في كتاب بعد وفاته بقليل إلا أنها تستحق دراسات مختلفة منها تعرف منهج ابن باديس رحمه الله في التفسير وفي شتى مناحي الفكر.

وحتى لا نكرر ما ورد في الكتب الأخرى نقتطف بعض الموضوعات التي توضح ما ذكرنا من قبل. ففي الفكر السياسي

نجد ابن باديس يصف لنا القائد وما يجب أن يتحلى به من مزايا من خلال تفسيره لآيات من سورة النمل وهي: ﴿حتى إذا أَتَوْا على وادي النَّمْل قالتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّها النَّملُ ادخلوا مَسَاكِنَكُم لا يَحْطِمنّكم سُلَيْمانُ وجُنُودُهُ وهُمْ لا يَشْعُرون﴾. فيقول ابن باديس: (هذه نملة وفَّت لقومها وأدت نحوهم واجبها فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم ولمن يرى الخطر داهماً لقومه فيسكت ويتعامى ولمن يقود الخطر إليهم ويصبُّه بيده عليهم، آه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة)[1].

كما أنه من خلال تفسير آيات أخرى يوضح ما هي الحضارة الحقة ومن هم عباد الله الصالحون الذين أورثهُم الأرض، وأن هؤلاء ليسوا الأوروبيين وذلك حين فسّر قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادِيَ الصالحون﴾[2] حيث قال: (رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض، وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها. فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان ـ فقالوا إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ«الصالحون» في الآية الصالحون

---

(١) الشهاب: ج ٤ م ١٥، ربيع الثاني ١٣٥٨ هـ = مايو ١٩٣٩ م.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

لعمارة الأرض، فيا لله للقرآن وللإنسان من هذا التحريف السخيف كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد وفسدت الأخلاق واعوجت الأعمال وساءت الأحوال وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة وروِّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها)[1].

أما في الحديث فهو يدرس الحديث دراسة عميقة تبدأ من السند يبين درجته من الصحة والحسن، ثم ينتقل إلى شرح مفرداته، وبعد ذلك يستنبط الدروس والعبر. ولنضرب على ذلك مثالاً نذكر منه الدروس والعبر التي استنتجها ابن باديس. ففي حديث قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعت الرجل يقول هَلَك الناس فهو أهْلَكُهُم» رواه مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ومسلم عن يحيى عن أبي يحيى عن مالك. ومما جاء في تعليقه على هذا الحديث تحت عنوان: أصل عام في التربية: (هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية. فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط، وهذا

---

(١) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: ص ٢١٠، عن الشهاب: ج ٦ م ١١ في جمادى الثانية ١٣٥٢ هـ = سبتمبر ١٩٣٥ م.

الحديث يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم)[1].

ثانياً: رجال السلف ونساؤه وبعض الأعلام المعاصرين:

وإننا من خلال دراسة النماذج التي قدمها ابن باديس ندرك أنه لم يختر هؤلاء بصورة عفوية بل كانت بناءاً على دراسة ووعي وفهم. ومن ذلك قدَّم ترجمة لعبادة بن الصامت رضي الله عنه أوضح من خلالها مزية أن يكون الإنسان «قوياً في دين الله لا تأخذه في الحق لومة لائم»، وأن يكون «صلباً في دين الله يوالي في الله ويعادي في الله». وأوضح أن عُبادة رضي الله عنه كان له موالي من اليهود ولكن لما رأى عداوتهم للإسلام وتربّصهم بأهله جاء إلى النبي ﷺ فقال له: (إن لي موالي من اليهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأتولى الله ورسوله). وفيه وفي عبد الله ابن أبي الذي لم يترك مواليه من اليهود نزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءَ بعضهم أولياء بعض ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم إن اللهَ لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمين ﴾[2]. أما الدرس الذي يستخلص من قصة عبادة أن عبادة هو «أول من سنّ

---

(١) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام البشير النذير: ص ٨٢، عن الشهاب: ج ٣ م ١٠ في ذي القعدة ١٣٥٢ هـ = ١٥ فبراير ١٩٣٤ م.

(٢) سورة المائدة الآية ٥١.

سنّة رفض ولاية مواليه لما رأى منهم الشر وتولى الله ورسوله»[1].

ويمكننا أن نضيف تحت العنوان نفسه ما كتبه الشيخ ابن باديس من تراجم لبعض العلماء والزعماء والأدباء والشعراء المعاصرين؛ أتى أحياناً بترجمة وافية وأحياناً بكلمات موجزة، وكلها تهدف إلى تقدير الرجال العاملين كما قال هو: (إنما تقاس الأمم بما تنتجه من الرجال وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها)[2]. ومن الأعلام الذين ترجم لهم الشيخ عبد العزيز جاويش، والشاعر الأديب رمضان حمود، وعمر المختار، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، ومحمد رشيد رضا، والأمير خالد، والإمام العلاّمة الشيخ محمد بخيت المطيعي وغيرهم.

ولنقتطف كلمات مما جاء في بعض التراجم التي قدمها لعلنا ندرك مغزى تقديم هذه التراجم:

١ ـ ترجم للسيد محمد رشيد رضا فذكر بعض المعلومات حول مولده ونشأته وتعليمه وشيوخه ثم تحدّث عن نشاطه من تعليم وصحافة. وتحدث في حلقة ثانية عن الأسباب التي هيأت للشيخ رضا نبوغه العلمي فتكلم عن البيئة المنزلية، وأثر المعلّم، والتحصيل المدرسي، والتحصيل النفسي، وتعيّن الغاية والاستعداد لها، وملكة التفكير والاستقلال فيها، وبعده عن الوظيفة. والشيخ عبد الحميد في كتابته هذه يظهر لنا مدى قدرته

(١) الشهاب: ج ١ م ١٠ في رمضان ١٣٥٢ هـ = يناير ١٩٣٢ م.
(٢) الشهاب: ج ٨ م ٨ في ربيع الثاني ١٣٥١ هـ = أغسطس ١٩٣٢ م.

على التحليل والاستنباط ودقة الفهم والوعي. وتحدث عن غايته السياسية فقال: (لقد كانت غايته السياسية الكبرى إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزاً للأمم الإسلامية في العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية)[١]. وتكلم على أثره فقال: (وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرّك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أُخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم ـ إصلاحاً وهداية، بياناً ودفاعاً ـ كلها من آثاره)[٢].

٢ ـ الفقيد العظيم الأمير خالد بن الهاشمي: لم تكن ترجمته لهذا العَلَم من جنس التراجم الأدبية، ولكنها كانت حديثاً سياسياً من أول كلمة حيث تحدث عن الأوضاع في الجزائر عقب الحرب العالمية الأولى ثم عودة الأمير خالد إلى الجزائر وتقلده رئاسة الواجهة الإسلامية (تدافع عن حقوقها دفاع البطل المستميت، وتقوم بحملتها في فرنسا وفي الجزائر بواسطة الخطب والصحف وبواسطة الدعاية والنشريات المختلفة، حتى إذا ضاق الاستعمار به ذرعاً أبعد عن البلاد)، ويتحدث ابن باديس عن محاولة أعداء الأمير تشويه سمعته بعد مغادرته البلاد وإلصاق التهم به فقال في ذلك: (إنما الأمة الإسلامية في القطر

(١) الشهاب: ج ٩ م ١١ في رمضان ١٣٥٤ هـ = ديسمبر ١٩٣٥ م.
(٢) المرجع نفسه.

الجزائري لا تزال ولن تزال تحتفظ بذكرى الأمير الجليل والزعيم المبجل كما تحتفظ أشراف الشعوب بأقدس الذكريات)[1].

ثالثاً: القضايا المعاصرة: ما كان ابن باديس العالم المنعزل في برج عاجي لا يعرف من الإسلام إلا فتوى في المولد أو زكاة أو صيام أو صدقة فطر أو نذر ـ ومع أنه كان يعلمها ويعلّمها ـ بل إنه عاش قضايا المسلمين الكبرى، وكان يبحث ليعلم ويعلّم ولينفع وليغيّر. كان يدرك دوره تماماً فقد جاء الاستعمار إلى البلاد يريد فرض ثقافته وانحرافاته وماديته وعقلانيته، وانجرف نفر من الشباب الجزائري مع هذا التيار، فكتب ابن باديس حول هذه الثقافة الجديدة قائلاً: (قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنّة الشريفة وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقحم في طريقهم من وضع الذين شبُّوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذيول التي ألصقها بالدين المغرضون أو أعداء الإسلام الألداء والغافلون من أبناء الإسلام)[2]. ثم يحدد أهداف الدعوة هذه ومنها: (انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وَهْدة الشك في كل شيء يُعزى إلى الدين بسبب ما يجده فيه من خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها وأن يعزوها إلى دين اشتهر باتصاله

(١) الشهاب: ج ١١ م ١١ غرة ذي القعدة ١٣٥٤ هـ = فبراير ١٩٣٦ م.
(٢) المرجع نفسه: ج ٢ م ٨ غرة شوال ١٣٥٠ هـ = فبراير ١٩٣٢ م.

بالعقل اتصالاً وثيقاً؛ بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم. وقد كان الإقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء سيّما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يبترا تلك الطبقة التي هي عدتنا من المجتمع الجزائري، وقد شجّعها على ذلك ما تقرؤه وتطّلع عليه من حين لآخر من سخافات الطقوس المسيحية ونحوها)[1].

التجنس:

كذلك انتشرت موجة في الجزائر تدعو إلى الدخول في الجنسية الفرنسية والحصول على الحقوق السياسية والاجتماعية التي يتمتع بها المتفرنسون. وقد كانت سياسة ابن باديس أن يوضح حكم الإسلام في التجنس وأن ما يقتضيه من رفض أحكام الشريعة الإسلامية بعضها أو كلّها يُعَدّ ارتداداً عن الإسلام وخروجاً منه، ويترك هؤلاء وما اختاروا لأنفسهم. فلما عقد المتجنسون اجتماعاً في أوائل أبريل ١٩٣٤م (ذي الحجة ١٣٥٣هـ) للمطالبة بتسهيل التجنس لزيادة عددهم، فيقول: (غير أننا لا نستجيز السكوت عنهم إذا رأينا منهم دعاية لتوسيع نطاق التجنيس إذ في ذلك محاولة إضعاف الإسلام باختطاف الضعاف من بنيه ومجاوزة لحدود النظر لأنفسهم بالإغراء

---

(١) المرجع نفسه.

لغيرهم)، ثم يدعوهم أن (يكفوا عن الدعاية ويتفرّغوا للحصول على الحقوق التي أرادوها مقابل ما «ارتكبوا» والتي ينالها كلها أحط أوروبي بمجرد التجنس وهم ما يزالون ولن يزالوا يحاولون استكمالها)[1].

وعندما أعلنت جمعيّة العلماء أنها كلفت رئيسها بالرد على أسئلة الناس واستفتاءاتهم وقدِّمَ إليه الكثير من الأسئلة من الجزائر وتونس حول التجنس قالها مرة أخرى بصراحة لم تُعرف عن كثير من علماء شمال أفريقيا حينئذ فكتب يقول: (التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكماً واحداً من أحكام الإسلام عُدَّ مرتداً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع)[2]. ثم وضح القضايا المختلفة المتعلقة بالمتجنس ونسله وزواجه من امرأة من جنسية غير إسلامية. والمقصود بهذا كله الجنسية الفرنسية. ويشير ابن باديس في آخر الفتوى إلى أن سؤالاً ورده من رئيس المتجنسين بتونس فكانت هذه الفتوى إجابة له[3].

الوحدة العربية:

ولقد كان من بين القضايا المثارة في الصحف العربية الوحدة السياسية للأمة العربية فحدثت مناظرة بين شكيب أرسلان

(١) الشهاب: ج ٥ م ١٠ محرم ١٣٥٣ هـ = ١٦ أبريل ١٩٣٤ م.
(٢) البصائر: العدد ٩٥ في ١٢ ذي القعدة ١٣٥٦ هـ = ١٤ يناير ١٩٣٨.
(٣) المرجع نفسه.

وسليمان الباروني وكان من رأي الأمير شكيب أنه من الصعب بل من المستحيل أن تجتمع دول في وحدة وهم لا يملكون زمام أمرهم فكان للشيخ عبد الحميد رأي في هذه المسألة مفاده أن «الوحدة السياسية لا تكون إلاّ بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة».. ثم يشير إلى أن الدول التي حققت استقلالها يجب عليها أن تتحد[1].

التقدم والمدنية:

حظيت فكرة التقدم والرقي بمساحات واسعة في الصحف العربية والإسلامية، وكانت ثغرة دخل منها الاستعمار والاستشراق اقتنع من خلالها بعض المفكرين المسلمين بأن الإسلام هو سبب التأخر. فانبرى ابن باديس يفنّد هذه المفتريات وهو يفسر كتاب الله الكريم، فحين فسر قول الله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريعٍ آيةً تَعْبَثون وتتّخذون مصانعَ لعلكم تَخْلُدون﴾[2]، فيقول رحمه الله: (ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟! والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع من المصنع كالمعمل من العمل، وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران)، ثم يوضح ابن باديس أهمية المصانع بأنها

(١) الشهاب: ج ١١ م ١٣، غرة ذي القعدة ١٣٥٦ هـ = يناير ١٩٣٨ م.
(٢) سورة الشعراء آية ٢٦.

(تُشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة)[1].

أما ما في الحضارة من صناعات وغيرها فإنها بنيت على أسس غير إسلامية، إنها بنيت على (القسوة، والقسوة لا تُحمد في مبدأ ولا غاية، وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدميـر لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها وإن كانت دلائل حضارة ومدنية)[2].

ولا يألو «الشهاب» ولا صاحبه جهداً في التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين والعمل على كل ما من شأنه أن يأخذ بأيديهم نحو التقدم والرقي. ومن ذلك نقل بعض المقالات من الصحف الشرقية التي تدعو إلى ذلك، ففي العدد السادس والعشرين من «الشهاب» نجد مقالاً مقتبساً من «الأهرام» يقول كاتبه: (وإذاً فالإسلام يحث على تعلم الصنائع ويسميها علماً ويعتبرها رحمة ويبين أنه كان يقوم بها ويشرف عليها أفضل الخلق وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو لا يعادي علماً ولا صنعة بل يعتبر القيام بالصنائع والعلوم من الفرائض التي يُتَقَرَّب بها إلى الله)[3].

---

(١) الشهاب: ج ٦م ١١ص٣٤٤ ـ ٤٥، جمادى الثانية ١٣٥٤هـ = سبتمبر ١٩٣٥ م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الشهاب: العدد ٢٦ في ٧ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ = ٢٠ مايو ١٩٢٦ م عن مقال لعبد الباقي سرور نشر في الأهرام. كذلك ألقى المؤلف بحثاً بعنوان «من آفاق التنمية عند ابن باديس» في ملتقى يوم العلم الذي دعا إليه المجلس الشعبي =

والحقيقة أن قضايا الساعة كانت كثيرة ولعل من أبرزها الاتجاه الداعي إلى الفرنسة والاندماج والتشبّع بالثقافة الفرنسية. والحقيقة أننا نعاني اليوم إلى حدّ كبير ما عاناه مجتمع ابن باديس. وانظر إليه كيف صوّرهم: (الشبّان المسلمين ينشؤون أولاً في وسط إسلامي ثم يدخلون المدارس الفرنسية فيتأثرون بالوسط الجديد فيحدث تنازع بين الروحين. وأما أشكال التأثر فهي كالتالي: نجد أكثرهم لا يتكلمون غالباً إلا باللغة الفرنسية وليس ذلك منهم بقصد التظاهر بالتفرنج والتشبّه السخيف بل إنهم مُرْغَمُون في ذلك بحكم تعلمهم اللسان الفرنسي، وقد لا يقف هذا التأثير عند التكلم بل يتعداه إلى التفكير نفسه حتى في شؤون الحياة العادية)[١].

لم يكن ابن باديس ليناقش مثل هذه القضايا من منطلق فكري بحت بل كان يدرسها من الواقع، يختلط بهؤلاء المثقفين ويهتم بهم. فقد عقدت جمعية الأساتذة بالقطر الجزائري ـ المعلمين بالمكاتب الفرنسية ـ اجتماعها السنوي بقسنطينة عام **١٩٣٣ م** (**١٣٥٢ هـ**)، فما كان من ابن باديس إلا أن أقام حفل تكريم لهؤلاء المعلمين باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دعا إليه قاضي المدينة وأعضاء شعبة قسنطينة (جمعية العلماء)

= البلدي بقسنطينة بعنوان «أثر القيم الإسلامية في التنمية» في الفترة من ١٣ ـ ١٧ أبريل ١٩٨٨ م = ٢٧ ـ ٣٠ شعبان ١٤٠٨ هـ.

(١) الشهاب: ج ١ م ١٢، محرم ١٣٥٥ هـ = أبريل ١٩٣٦ م.

ومحرر «النجاح» وبعض رجال العلم والأدب[1]. وزيادة على دعوة كهذه فإنه يجتمع إلى هؤلاء ويحدثهم ويحادثونه ففي أحد اللقاءات مع بعض المثقفين الجزائريين بالثقافة الفرنسية دار بينه وبينهم حديث حول كيف تكسب الأمم والأفراد الاحترام في أعين غيرها فيقول: (جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوروبي والمتأدب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم وانساق بنا الكلام إلى ما تكسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها، واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار. .)[2].

ولنختم هذا الفصل وحديث ابن باديس عن القضايا المعاصرة: وقوفه في وجه التنصير، وقد اتخذ لذلك عدة سبل: أهمها نشر العقيدة الصحيحة، والحرص على نشر التعليم العربي الإسلامي، ثم الدعوة إلى المحافظة على الشخصية الإسلامية العربية للمواطن الجزائري. ثم لم يكتف بكل ذلك بل وجد أن العداء مستحكم في نفوس المستوطنين وبخاصة أولئك الذين كانوا يعملون منصِّرين فدرس فكرهم بعمق. وقد عجبت أن يتسع وقت ابن باديس رحمه الله لمعرفة المسيحية من كتبها،

---

(١) الشهاب: ج ٦ م ٩ ص ٢٦١، غرة محرم ١٣٥٢ هـ = ماي ١٩٣٣ م.
(٢) الشهاب: ج ٨ م ١١، شعبان ١٣٥٤ هـ = نوفمبر ١٩٣٥ م.

ثم من منطلقاتهم الفكرية والعقدية يـرد عليهم ويتعجب من تعصبهم وحقدهم على الإسلام ويقول في ذلك: (حاشا الأصول الأولى لتلك الملّة أن تأمر بهذا فقد عرفوا ما جاء في «متّى» ٥ : ٤٤ : «**أما أنا فأقول لكم أحبّوا أعداءكم. باركوا لاعِنِيكم. أحسنوا إلى مُبْغضكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم**»، ولكن الرؤساء الذين يـرون المحافظة على مصالحهم ويرون أن محبة أتباعهم لن تكون إلا بقدر بغضهم للإسلام هم الذين يتحملون مسؤولية هذا ويبوءون بإثمه)[1].

ثم يدعو ابن باديس أخوانه المسلمين إلى التمسك بالتسامح، والابتعاد عن التعصب، ويظهر رجاءه أن يقلع النصارى المستوطنون عن أحقادهم وتعصبهم ضد المسلمين[2].

---

(١) الشهاب: ج ٣ م ١٢ ص ١٠٨ ـ ١٠٩، ربيع الأول ١٣٥٥ هـ = يونيه ١٩٣٦ م.
(٢) المرجع نفسه.

ـ الفصل الثالث ـ
نشاطه السياسي ونشاطات أخرى

نشاطاته السياسية:

لقد أثار نشاط ابن باديس الكثير من الجدل حول حق العلماء في ممارسة العمل السياسي. وكان الاختلاف كبيراً حول مفهوم السياسة والعمل السياسي. فالإسلام يشمل جميع جوانب حياة الإنسان فهو يعتني بعقيدة الإنسان كما يهتم بالأخلاق الخاصة والعامة، ويضع قواعد السلوك الفردي والجماعي في السلم والحرب، ويهتم بالأمور الشخصية من زواج وطلاق وميراث، ويضع التشريعات الجنائية، ويهتم بكل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم. بل ويضع القواعد التي تسير عليها الأمة في المال والعلاقات الدولية وغير ذلك[1]. ولقد أعجبني تعريف أحد الكتاب للسياسة حيث يقول: (إنما السياسة هي الإدارة العامة لشؤون الناس إما تفضي إلى عدل أو إلى ظلم، والقرار السياسي ـ في محصلته النهائية ـ هو الذي يحدد طبيعة السكن الذي

---

(١) نجيب الكيلاني، حول الدين والدولة: ص ١٠.

نسكنه، وطبيعة الطريق الذي نعبره، وطبيعة الجريدة التي نقرؤها، وطبيعة المذياع الذي نسمعه، وطبيعة التلفاز الذي نشاهده، وكمية الدراهم التي نحملها في المحفظة)[1].

إذا كانت السياسة هي هذه الأمور كلها فهل يمكن أن يقتصر العمل فيها لمجموعة من أفراد الأمة أولئك الذين يحترفون السياسة ويحجب عن العمل فيها أو حتى مجرد التفكير بقية أفراد الشعب؟.

ولما كان العلماء هم قادة الفكر والرأي في الأمة فلا بد أن يشاركوا في السياسة التي لا يقر الإسلام مطلقاً الفصل بينها وبين الدين الإسلامي.

ولتأكيد مشاركة العلماء في السياسة فقد كتب ابن باديس في مناسبات مختلفة يوضح هذا الرأي. ففي عام **١٣٥٢** هـ = **١٩٣٣** م كتب ابن باديس يقول: (ثم ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة وإنما لكل امرىء ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره)[2].

ويواصل ابن باديس معلماً ومفكراً وقائداً سياسياً حكيماً حتى

---

(١) عبد الله فهد النفيسي، عندما يحكم الإسلام: ص ٤.

(٢) الصراط السوي: عدد ١٥ في ٨ رمضان ١٣٥٢ هـ = ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣ م.

إذا نجح ابن باديس في عقد أول مؤتمر إسلامي عام ضم جميع الأحزاب والاتجاهات الفكرية الجزائرية انبرت الأقلام التي تحمل الفكر الغربي تنتقد ابن باديس في عمله هذا وتعيب على العلماء التدخل في الشؤون السياسية، فكتب مقالاً بعنوان «واجب العلماء في المجتمع» يقول فيه: (وهكذا فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من الشؤون العامة ـ كما يزعم البعض في هذه البلاد ـ بل هم أولى من غيرهم بذلك وهم رعاة الأمة المسؤولون وليس لغيرهم أن يستهجن فعلهم أو يلومهم إذا هم قاموا بما يجب عليهم نحو أمتهم. وليست مهمة العالم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقط.. وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وفي كل عصر إلّا قادة الفكر والسياسة والدين)[١].

وفي إحدى زياراته لتونس دُعي لإلقاء محاضرة في جمعية الطلبة الجزائريين بتونس والجمعية الودادية الجزائرية بتونس في ربيع الأول ١٣٥٦ هـ = يونيه ١٩٣٧ م، فكان مما جاء في محاضرته قوله: (وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معاً، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعوّدوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجدّ)[٢].

---

(١) البصائر: العدد ٤٣ في ٢٨ شعبان ١٣٥٥ هـ = ١٣ نوفمبر ١٩٣٦ م.
(٢) البصائر: العدد ٧١ في ٩ ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ = ١٨ يونيه ١٩٣٧ م، نقلاً =

إذن كان نشـاط ابن باديس السياسي مستنداً إلى فهمه للإسلام الذي ما تأخر أتباعه إلا حينما أقصَوْا العلماء عن سدّة الحكم أو عن إبداء الرأي في المسائل السياسية. فقد جاء في تفسير القرطبي ما يلي: (قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعـزائم الأحكام ومن لا يستشيـر أهل العلم والـدين فعزلـه واجب)[1].

لقد بدأت مشاركة ابن باديس في السياسة منذ وقت مبكر من حياته. فإن كانت فرنسا قد فرضت التجهيل على عامة الشعب الجزائري، وسمحت بالتعليم الفرنسي لطبقة منه، فقد أخذ ابن باديس يحاربها بنشر التعليم بين طبقات الشعب كافة حتى أولئك الذين كانوا يدرسون في المدارس الفرنسية خصص لهم أوقاتاً بعد أن يفرغوا من الدراسة بالمدارس الفرنسية حتى يتلقوا العلم الإسلامي على يديه أو أيدي العلماء المسلمين الآخرين ليرتبطوا بأمتهم برابطة اللغة، والفكر، والتاريخ، والعقيدة.

أما الخطوة التالية في مشاركة ابن باديس في السياسة فهي الحديث عن قضايا الجزائريين ومطالباتهم بالمساواة في الحقوق كما ساوتهم فرنسا بالواجبات. وأظهر ابن باديس أن الجزائر مرتبطة بفرنسا وأن هذا الارتباط ضروري. وهذا ما كان يدعو له جمع من المثقفين الجزائريين الثقافة الفرنسية، وما كان مقبولاً

= عن «الزهرة»: عدد ٢١ و٢٢ في ربيع الأول ١٣٥٦ هـ.

(١) تفسير القرطبي: ٢٤٩/٤.

أن يصرح ابن باديس في هذا الوقت بالمطالبة بالاستقلال أو عدم الارتباط بفرنسا، فكان مما قاله في ذلك: (ارتباط الجزائر بفرنسا اليوم صار من الأمور الضرورية عند جميع الطبقات فلا يفكر الناس اليوم إلا في الدائرة الفرنسية.. ورغبتهم الوحيدة كلهم هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق كما هم مثلهم في الواجبات)[1].

وقبل إعلان الولاء هذا يناقش ابن باديس محاولات الحكومة الفرنسية تفهم أحوال المسلمين في الجزائر وينتقد ما يراه حقيقاً بالانتقاد، فقد كانت فرنسا ترسل اللجان لدراسة أحوال البلاد فيتدخل المستوطنون ويعرقلون أعمالها. لذلك عندما أرسلت فرنسا لجنة برئاسة م. فيوليت تحدّث عنها ابن باديس قائلاً: (ليست هذه هي اللجنة الأولى التي جاءت للبحث عن حالة المسلمين ولكنها الأولى التي باشرت خطتها بكل حرية دون أن تكون الإدارة واسطة بينها وبين الناس فكانت تستقي معلوماتها من مصادرها وتتصل برجال المسلمين مباشرة)[2]. أما انتقاده للجان السابقة فيقول في ذلك: (قد تكررت لنا الوعود من رجال رسميين ومن وزراء على ذروات المنابر وكانت كلها برقاً خلباً حتى صرنا ـ والحق يقال ـ قلّما نقيم لوعد وزناً)[3].

---

(١) الشهاب: ج ٨ م ٨، ص ٤٠١ ـ ٤٠٩، غرة ربيع الأول ١٣٥١ هـ = أغسطس ١٩٣٢ م.
(٢) الشهاب: ج ٥ م ٧ غرة محرم ١٣٥٠ هـ = مايو ١٩٣١ م.
(٣) المرجع نفسه.

ولما كانت الجزائر تُعَدّ جزءاً من فرنسا فقد قررت الحكومة الفرنسية أن يكون للجزائريين نوابٌ يمثلونها في البرلمان الفرنسي، ولكن هؤلاء الممثلين كانوا من المستوطنين فقط. فطالب ابن باديس أن يكون هناك نوابٌ من الأهالي الجزائريين في البرلمان وأكد أن هذا (أمر لا مندوحة عنه إذ ليس من الحق في شيء أن تصدر قوانين في شأن قوم في غيبتهم)[١].

أرادت الحكومة الفرنسية عام ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م أن تصدر مجلة للأحكام الشرعية فعيّنت بعض أساتذة جامعة الجزائر المتخصِّصين بالفقه الإسلامي لإصدارها، فكتب ابن باديس سلسلة من المقالات بعنوان «القضاء الإسلامي - مجلة موران والأحكام الشرعية» منتقداً فكرة إخراج مثل هذه المجلة ذلك أنه عَدَّ ذلك تدخلاً من فرنسا في القضاء الإسلامي وحجراً على القضاة في الرجوع إلى الشريعة الإسلامية بالإضافة إلى اعتقاده أنّه (لا بد في واضعيها من أن يكونوا متضلِّعين في الفقه الإسلامي مطّلعين على كتب أهله مقتدرين على تلخيص مسائله ولا بد أن يكونوا عارفين بأحوال الأمة)[٢]. وهم لا شك لم يكونوا كذلك وإلا لما عدّ ذلك ابن باديس تعدّياً على حقوق الأمة الخاصة بها والحكم عليها بما لا ترتضيه نفوسهم.

ولعل ذروة النشاط السياسي في نظر السياسيين المحترفين

---

(١) الشهاب: العدد ١١٥ في ٢ ربيع الثاني ١٣٤٦ هـ = ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧ م.
(٢) الشهاب: العدد ٣١ في ٦ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ = ١٧ يونيه ١٩٢٦ م.

المناداة بالاستقلال، وقد ظنوا أنهم أول من فعل ذلك وهماً منهم. وإن كانوا قد فعلوا ذلك فقد انطلقت حركتهم (نجم شمال أفريقيا) من فرنسا حيث لم يكونوا خاضعين للأحكام القاسية في الجزائر المسماة قانون الأندجينا الذي سبق ذكره. ومع ذلك فقد كتب ابن باديس مقالاً يتحدث فيه عن سياسة بريطانيا الاستعمارية ـ وقد كان من نوع اللحن الذي يفهمه ذوو الألباب ـ فقال: (قلّب صفحات التاريخ العالمي، وانظر في ذلك السجل الأمين هل تجد أمة غُلبت على أمرها ونُكبت بالاحتلال ورُزئت في الاستقلال ثم نالت حريتها منحة من الغاصب وتنازلاً من المستبد ومنّةً من المستعبد.

اللهم كلا! فما عَهِدنا الحرية تُعطى إنما عهدنا الحرية تُؤخذ، وما عهدنا الاستقلال يُمنح ويُوهب إنما علمنا الاستقلال يُنال بالجهاد والاستماتة والتضحية، وما رأينا التاريخ يُسجِّل بين دفتي حوادثه خيبةً للمجاهد إنما رأيناه يسجل خيبة للمستجدي)[1].

تحدث ابن باديس هنا عن الاستقلال والجزائر محتلة ولم يذكر الجزائر صراحة في هذا المقال إنما كان يناقش احتلال الإنجليز لبعض الدول الإسلامية ويدعوها إلى الجهاد وعدم الاستجداء، فما كان الاستقلال يُمنح ويُوهب كما قال.

ويسير ابن باديس في هذا الخط متحدثاً عن الاستقلال والحرية مطالباً فرنسا بالحقوق كأنما ليوهم فرنسا أنها صاحبة

---

(١) الشهاب: ج ٥ م ٦، غرة محرم ١٣٤٩ هـ = يونيه ١٩٣٠ م.

الأمر ليواصل هو عمله في إيقاظ الأمة؛ ذلك أن أمة جاهلة بدينها، وتاريخها، ولغتها، وشخصيتها، وكيانها لا تقوى على أخذ الاستقلال بله التفكير فيه. وكان مما قاله ابن باديس يوقظ به الأمة إلى حقها في الاستقلال فيقول: (إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا مع الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن تزداد تقلّباً.. وتصبح الجزائر مستقلة استقلالاً واسعاً تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر)[1].

وكثيرة هي الدلائل على هذا التفكير ومنها أحاديثه لتلاميذه حيث يروي الشيخ محمد الصالح رمضان أن بعض شبّان الحركة الوطنية جاؤوا للشيخ ابن باديس وقالوا له أنت شخصية كبيرة، لماذا لا تدعو للاستقلال وأنت مسموع الكلمة؟ فقال لهم: (يا أبنائي من أراد أن يبني منزلاً هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال: فبماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران. فقال: هذا ما أفعله، الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف)[2].

لم يقف ابن باديس رحمه الله عند مرحلة التفكير والكتابة في

---

(١) الشهاب: ج ٣ م ١٢ صفر ١٣٥٥ هـ = مايو ١٩٣٦ م.

(٢) رمضان، مرجع سابق. وقد أشار أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاح» إلى أنه صاحب هذا القول. لله درّه كيف ينسب لنفسه ما قاله ابن باديس رحمهما الله؟!

الصحافة داعياً إلى الاستقلال بل تعدى ذلك إلى مرحلة التفكير العملي. وقد رُوي عن الشيخ أكثر من حديث أبدى فيه عزمه على إعلان الجهاد. ومنها ما ذكره لي الشيخ حمزة بوكوشة قائلاً: (كنا جلوساً مع الشيخ وكان مريضاً جداً وكان من ضمن الحضور محمد جلول وسي عبد الرحمٰن بن بيبي فقال لنا الشيخ: تعاهدوني. فقلت له ـ الشيخ حمزة ـ: نعاهدك على أمر تكون فيه. قال: وهل يمكن أن أطلب أمراً لا أكون معكم؟ قلت: إذاً على ماذا نعاهدك؟ قال: الوقت الذي تعلن فيه إيطاليا الحرب على فرنسا فإننا نعلن الحرب عليها. ومات قبل ذلك)[1]. وقد أورد الشيخ حمزة بوكوشة هذه القصة في مقالٍ له نشر في مجلة المعرفة قبل حديثي معه بتسع سنوات.

وهناك رواية أخرى ذكرها لي الشيخ عبد الرحمٰن شيبان ـ وزير الشؤون الدينية السابق في الجزائر ـ (أن مجلساً جمع الشيخ ابن باديس وصديقه عبد الرحمٰن يحيى الشريف ـ المعروف بـ بن بيبي ـ فسأل ابن باديس صديقه: هل عندكم في سطيف رجال؟ فأجابه عبد الرحمٰن: ماذا تعرف؟ ليس في سطيف إلا الرجال! فقال ابن باديس: هل في الإمكان العثور على من يضع قنبلة في مطار عين أرنات ـ قرية قريبة من سطيف بنحو ٧ كيلاً ـ وكان هذا قبل وفاته بشهر أو شهرين)[2].

---

(١) الشيخ حمزة بوكوشة، مقابلة معه، مرجع سابق.

(٢) الشيخ عبد الرحمٰن شيبان، مقابلة شخصية معه في مكتبه بوزارة الشؤون الدينية في ١٦ صفر ١٤٠٤ هـ = ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣ م.

ويروي الشيخ أحمد حماني -رئيس المجلس الأعلى الإسلامي بالجزائر- أنه في إحدى أمسيات خريف عام ١٩٣٩ م في مجلس بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وكان الحديث حول الأوضاع السياسية في العالم وإعلان الحرب العالمية الثانية وقبول بعض كبار رجال الأحزاب السياسية التجنيد في جيش فرنسا طوعاً أو كرهاً فقال ابن باديس رحمه الله ما معناه: (لو أنهم استشاروني واستمعوا إلي وعملوا بقولي لأشرت عليهم بصعودنا جميعاً إلى جبال أوراس وإعلان الثورة)[١].

إن كان ابن باديس قد فكر في الثورة فقد أعد لها عدتها فكرياً ونفسياً وعسكرياً فقد أكد أحد تلاميذ ابن باديس الأقدمين -وهو محمد الحاج بجّة من دائرة أقبو- أن الشيخ كان يسأل تلاميذه الكبار عن أدائهم للخدمة العسكرية فمن أداها ميزه عن غيره وقال لهم: (إننا سنحتاجكم يوماً ما). وكان يوصيهم بالمحافظة على معرفتهم للرمي وكما ذكرنا من قبل أنه كان يقرب إليه الفضيل الورتلاني لأنه أدى الخدمة العسكرية، وكان يعهد إليه بتربية صغار التلاميذ على الثورة[٢].

وإذا تحدثنا عن نشاطه السياسي فلا بد من ذكر رئاسته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قادها منذ تأسيسها عام ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م حتى وفاته في ١٣٥٩/٣/٩ هـ = ١٦

---

(١) أحمد حماني، في ذكرى عبد الحميد بن باديس، جريدة العصر، مرجع سابق.

(٢) أحمد حماني، العصر عدد ٨٥، مرجع سابق.

أبريل ١٩٤٠ م. قادها في ظل النظام الذي يسمح للجمعيات الدينية، فكان ابن باديس حريصاً على إظهارها بأنها «جمعية دينية محضة» كما ورد في إحدى خطبه، وإلا فإنها في حقيقتها كانت صاحبة دور فعال في الحركة الوطنية الجزائرية حتى قال عنها مؤرخو الجزائر: (والحق أنه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيراً واضحاً مثلما فعلت جمعية العلماء. وإذا كانت المنظمات الأخرى (بما في ذلك الأحزاب السياسية) قد خاطبت فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب فإن خطاب جمعية العلماء كان قد وصل أفقياً وعمودياً إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدنية ومن ثم هزت المجتمع الجزائري هزاً عنيفاً)(١). وقال مؤرخ فرنسي: (لا يمكن فصل العنصر الديني عن العنصر السياسي في الإسلام، وإصلاح العقائد ورفع مستوى الثقافة العربية لا ينفصل في نظر العلماء عن الموقف السياسي في صالح العروبة والوطنية الجزائرية)(٢).

وحتى يجنب ابن باديس جمعية العلماء نقمة السلطات الفرنسية كان يعمل ضمن إطارين أو دائرتين إحداهما كونُه رئيساً للجمعية، والأخرى كونُه مواطناً جزائرياً يحق له ممارسة جميع

---

(١) أبو القاسم سعد الله، رأي في دور جمعية العلماء، جريدة الشعب الجزائرية اليومية في ٥ رمضان ١٤٠٦ هـ = ١٤ مايو ١٩٨٦ م ـ وهذا المقال هو تقديم د. سعد الله لكتاب للمؤلف حول جمعية العلماء.

(٢) Ch. Robert Ageron. Histoire de L'Algerie Contemporaraine. Tom II. Paris. Press Universitaire P. 332. 1979.

النشاطات السياسية، وقد صرح هو بذلك في قوله: (إن ميدان العمل في هذه الجمعية لميدان واسع وهنالك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها باسمها ولكن ـ إن كان فيها منفعة ـ أدخلها باسمي ـ إن كان عند قومي قيمة لاسمي ـ وأرجو أن يعينني الله عليها)[1].

من هذه الميادين التي أشار إليها ابن باديس مخاطبة الحكومة الفرنسية في باريس والإدارة الفرنسية في الجزائر في قضايا الأمة الجزائرية كالتعليم والحقوق السياسية والاجتماعية. ولعل أبلغ خطاب وجهه ابن باديس مقالاً بعنوان «ليس الخبز كل ما نريد من فرنسا» جاء فيه: (جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم عالمين بما فيه الأمة من جوع وفاقة ـ أننا قوم لا نريد إلا الخبز، وأن الخبز عندنا هو كل شيء، وأننا إذا ملئت بطوننا مهدنا ظهورنا وأنهم إذا أعطونا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب. .

لا يا قوم إننا أحياء وإننا نريد الحياة وللحياة خُلِقنا. وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلها ضروريات في الحياة)[2].

كان كذلك من الميادين التي دخلها باسمه تحليلاته السياسية

---

(١) الشهاب: ج ٨ م ١٢ ص ٣٥٩ ـ ٣٦١، شعبان ١٣٥٥ هـ = نوفمبر ١٩٣٦ م.

(٢) الشهاب: ج ٩ م ١٢، رمضان ١٣٥٥ هـ = ديسمبر ١٩٣٦ م. والخلق الذي يشير إليه هو حياة التقشف والزهد والصبر.

العميقة التي دلت بوضوح على معرفته لدخائل السياسة الفرنسية معرفة السياسي المتمرس، ومن ذلك حديثه عن الواجهة الشعبية Popular Front حيث يقول: (ونحن نعترف أن الواجهة الشعبية سارت شوطاً من ماضي أيامها بالروح التي تأسست عليها تنفِّس الخناق عن المستضعفين شيئاً ما، وانتعشت الآمال في المستقبل بعض الانتعاش ولكن ما لبث الطغيان الاستعماري والجبروت المالي أن أخذ يتغلّب وأخذت حكومة الواجهة تبعاً لذلك تتقلب حتى انتهت إلى ما انتهت إليه الحكومات قبلها)[1]. ويوضح في المقال نفسه قلة خبرة رجال الواجهة الشعبية في السياسة، وأن الحكومة كانت باسمهم ولكن الحكم كان بيد غيرهم.

ذكرنا أن ابن باديس دعا إلى المؤتمر الإسلامي العام سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م، وأنه مثّل العلماء بالإضافة إلى الأمين العمودي، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي[2]. وبعد عودة

---

(١) محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس: ص ١٩١ ـ ١٩٢، عن الشهاب: ج ٩ م ١٣ نوفمبر ١٩٣٧ م.

(٢) **الأمين العمودي**: من مواليد وادي سوف عام ١٣٠٨ هـ، يعرف اللسانين العربي والإفرنسي، كان محامياً تولى منصب الكاتب العام لجمعية العلماء، ترأس تحرير جريدة الدفاع La Defence بالفرنسية، استشهد عام ١٩٥٧ م.
محمد البشير الإبراهيمي: ولد عام ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م في قرية سيدي عبد الله نواحي مدينة سطيف، تلقى العلم على والده وعمه، حفظ القرآن وكثيراً من المتون، هاجر مع أسرته عام ١٣٣١ (١٩١١ م) إلى المدينة المنورة، عاش في الحجاز وسوريا مدة من الزمن، عاد ليشارك في النشاط الإصلاحي في الجزائر. =

الوفد من باريس خاطب الأمة الجزائرية قائلاً: (أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها)[1]. فيا من زعمتم أنكم تطالبون بالاستقلال في مظاهرات وحفلات وتبرعات ووعي سياسي، ألا يكفي قول ابن باديس هذا: (تلك الحرية.. كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها)؟

حاول المطالبون بالاستقلال أن يعرقلوا عمل المؤتمر الإسلامي بعد أن نجح لأول مرة في تاريخ الجزائر المعاصر أن يجمع شتات الشعب الجزائري. وهذا المؤتمر كوّن لجنة تنفيذية، وحاولت هذه اللجنة في السنة الثانية من انعقاد المؤتمر إسناد رئاستها للشيخ عبد الحميد فكان ردُّه أن أشغاله العلمية تستغرق أوقاته كلها ومع ذلك فلن يقطع برأي حتى يعرض الأمر على الهيئات العلمية التي يعمل فيها فهي (مروّضة على الشورى

= الطيب العقبي: هو الطيب بن محمد بن إبراهيم العقبي ولد في بلدة سيدي عقبة عام ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م، هاجر مع عائلته إلى المدينة المنورة وهو ابن خمس أو ست سنوات، تلقى العلم في الحرم النبوي الشريف، عمل مع شريف مكة في جريدة القبلة، عاد إلى الجزائر عام ١٣٣٧ هـ = ١٩٢٠ م. كان من الأعضاء المؤسسين للجمعية كان له نشاط صحافي واسع.

(١) الشهاب: ج ٦ م ١٢ ص ٢٧٢، غرة جمادى الثانية ١٣٥٥ هـ = سبتمبر ١٩٣٦ م.

لا تعرف غير سبيلها، وهي المالكة لحياتي لأني جعلت حياتي ملكاً لها). ثم يذكر هـذه الهيئات وهي: المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورؤساء شعبها الثلاث، وعرفاء تلامذة الجامع الأخضر[1]. ولنا وقفة هنا أن ابن باديس جعل عرفاء تلامذة الجامع الأخضر من الذين يُستشارون في أمر يهمهم بلا شك، وقد حدثت اضطرابات كبرى في الجامعات الأمريكية وربما غيرها من أجل أن يكون للطلاب صوتٌ فيما يقرَّر بشأنهم، فانظر كيف سبق ابن باديس زمنه بسنوات عديدة. ولعل هذه لا تكون المرة الوحيدة التي سبق فيها ابن باديس زمنه أو الحادثة الوحيدة التي رجع فيها لرأي تلاميذه. ولا سيما إذا علمنا كيف كان يعاملهم.

وكما ذكرنا فإن مقالات ابن باديس لفرنسا كانت في جميع القضايا التي تهم الشعب الجزائري. فإذا علمنا أن التجنس من بين القضايا ذات الحساسية الشديدة ولكن ابن باديس لم يتوان عن الكتابة فيها وكان مما قاله في التجنس بالجنسبة الفرنسية ما يلي: (والتجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية ومن رفض حكماً من أحكام الإسلام عُدّ مرتداً عن الإسلام بالإجماع فالمتجنس مرتدّ بالإجماع).

والمتجنس ـ بحكم القانون الفرنسي ـ يجري تجنسه على

---

(١) محمد الطاهر فضلاء، المرجع السابق ص ١٩٣ ـ ١٩٤ عن البصائر العدد ٩٣ في ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ م = ٢٨ شوال ١٣٥٦.

نسله، فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام، (وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجاً عن شريعة الإسلام بسبب جنايته)[١].

ولما أصدر رئيس الوزراء قانون ٨ مارس ١٩٣٨[٢] لوضع العقبات في وجه تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي هبّ ابن باديس بوصفه رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حاملة لواء التعليم العربي الإسلامي فكتب الكثير، بل إنه أحدث ضجة عجيبة من كثرة ما كتب، ومن ذلك أنه وجّه الخطاب إلى فئات من الشعب الجزائري لا يمكن أن يفكر الإنسان العادي في استثارتها ضد هذا القانون. ولن نحصي هنا كل ما كتبه ولكننا نأتي بنماذج من هذه الكتابات لنتعرف على مجال من نشاطه السياسي رحمه الله، فكتب بعد شهر من صدور هذا القانون يقول: (إن أعداء الأمة الجزائرية ـ وأعداء فرنسا أيضاً ـ يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قراراً وزارياً بعقوبات على التعليم ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها).

(لقد فهمت الأمة مَن المعلمون المقصودون. إنهم معلمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام، لأنهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يَلْقَوْن من معارضة ومناهضة، وما يجدون من مقاومة

---

(١) البصائر: العدد ٩٥ ص ٢ في ١٢ ذي القعدة ١٣٥٦ هـ = ١٤ يناير ١٩٣٨ م.
(٢) هو قانون شوطان Chautemps decree.

ومحاكمة بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروّجين للنصرانية في السهول والصحارى والجبال، بين أبناء وبنات الإسلام، فيّ أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال).

قد فهمنا ـ والله ـ ما يُراد بنا، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي ـ بعون الله ـ في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدّنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا)[1].

هذا القرار حمل ابن باديس على الاتصال بجمعيات وفئات جزائرية مختلفة، فكتب إلى جمعية قدماء المحاربين وفروعها بالعمالات الثلاث طالباً منهم أن يجتمعوا للاحتجاج على هذا القرار، ولا يكون الاحتجاج بالصيغة التي تختارها الجمعية بل يطلب منهم أن يعلموه بموعد اجتماعهم ليخبرهم «بالكيفية التي يقع بها الاحتجاج»[2].

وكتب أيضاً إلى قضاة الشرع الإسلامي بالعمالات الجزائرية الثلاث (الولايات أو المقاطعات) يناشدهم فيه قائلاً: (لا شك أنكم قرأتم كما قرأنا قرار ٨ مارس الأخير وفهمتم مغزاه كما فهمناه وكان وقعه عليكم كوقعه علينا، وما هو إلّا تكميل لقوانين قبله سبقت وكلّها تجتمع على محو هذا الدين ولغته من هذا

(١) البصائر: العدد ١٠٧ في ٧ محرم ١٣٥٧ هـ = ٨ أبريل ١٩٣٨ م.
(٢) البصائر: العدد ١١٠ في ٢١ صفر ١٣٥٧ هـ = ٢٢ أبريل ١٩٣٨ م.

القطر..) وفي هذا الخطاب يستثيرهم للاحتجاج على هـذا القرار[1].

وقد نعجب إنْ عرفنا أنه وجّه الخطاب أيضاً إلى المعلمين بالمدارس الفرنسية وكان مما جاء في هذه المناشدة: (وإن كان لبعضكم بحكم الطبع أو بحكم الوظيفة منازع لا دينية في التربية والتعليم أو منازع سياسية في لغة التعليم فلا تنسوا أن في الأمم جانباً وجدانياً لا يمكن انتزاعه ولا التسلط عليه ولا بد من اعتباره أساسياً في تربيته الخاصة). ويحاول النداء إقناع معلمي الفرنسية بعدالة موقف الجمعية وذلك بجعل أوقات التدريس في مدارس الجمعية لا تتعارض مع أوقات المدارس الفرنسية بالنسبة للطلاب الملتحقين بالمدارس الفرنسية التي لا تتسع لعشر الأطفال المسلمين[2].

لم يكن قرار شوطان هو الأخير في سلسلة قرارات الحكومة الفرنسية ضد العلماء الجزائريين فقد أصدر الوالي العام في الجزائر منشوراً موجهاً لولاة الجنوب الجزائري ـ الخاضع للحكم العسكري ـ بإلقاء القبض على كل طالب منتسب لجمعية العلماء، وإلقاء القبض على العلماء يعقبه عادة أنواع من المظالم

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) مازن صلاح مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية ١٣٤٩ ـ ١٣٥٨ هـ= ١٩٣١ ـ ١٩٣٩ م، دار القلم بدمشق، نقلاً عن البصائر: العدد ١١٠ في ٢١ صفر ١٣٥٧ هـ= ٢٢ أبريل ١٩٣٨ م.

والاعتداءات. فما كان من ابن باديس إلّا أن وجّه احتجاجاً شديداً إلى الوالي العام، وإلى وزير الداخلية وإلى رئيس الوزراء جاء فيه: (وإني لآسف جدّ الأسف حيث إن جمعيتنا رغم صفاء نية رجالها ونبل غاياتهم لا يزال يصدر عليها هذا النوع من القوانين الغاشمة والمعاملات القاسية)[1].

يواصل ابن باديس نشاطه السياسي فيجد بدء العام الهجري الجديد **١٣٥٨ هـ** مناسبة ليخاطب الشعب الجزائري يصف حالته وما يلاقيه من اضطهاد الاستعمار وقهره كأنما يُعدّه نفسياً للثورة وينادي فيه إسلامه ليعرف الجميع أنه ليس التراب وحده هو الذي يحرك الشعوب، فإن العقيدة تأتي أولاً.

وإن كنا أطلنا في الاقتباسات من أقوال ابن باديس فلعمري ما هي إلا ضرورة لنعرف كيف عمل هذا الزعيم والقائد الحكيم المبارك. يريد ابن باديس أن يهنىء الشعب الجزائري بالعام الجديد فماذا يقول؟

(أأهنيك ومساجدك في وجوه أهل العلم مغلقة؟!

أأهنيك وتعليم دينك ولغة دينك لا تُعطى رخصته لمن يطلبها وتنزع ممن يطلبها ويحاكم المعلمون كالمجرمين؟!

أأهنيك ومطالبك خابت فيها آمالك؟!

أأهنيك وأبناؤك البررة في زوايا السجون منهم من قضي عليه

(١) البصائر: العدد ١١٥ في ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٧ = ٢٧ مايو ١٩٣٨.

ومنهم من أهمل من زمان فهو ينتظر قضاءه، ومنهم من - في ساعة كتابتي هذه - يُذهب ويُجاء به إلى مجالس القضاء؟!...

ماذا ألم تبق لله عليك نعمة أهنيك بها؟ كلا! ثم كلا!!

إن شعبنا احتضنه الإسلام واحتضن الإسلام ثلاثة عشر قرناً، لن يضيع عن الله أبداً أبداً.

ألم يحفظ الله عليك هذا الإسلام رغم الجهل والتفقير وبث أسباب التنصير؟

ألم يحفظ الله عليك عروبتك رغم التمزق والتزهيد والتهديد؟

بلى ثم بلى.. فأنا أهنيك أيها الشعب الكريم بإسلامك وعروبتك وجزائريتك)[1].

لما رأى الاستعمار النجاح الذي حققته جمعية العلماء بقيادة ابن باديس وزملائه دبَّر قضية هي من أخطر القضايا ذلك أنه عمد إلى قتل مفتي العاصمة محمود بن دالي - المشهور بكحول - واتهم الشيخ الطيب العقبي. كذلك كانت هناك محاولة لقتل الشيخ أحمد الحبيباتي - أحد علماء قسنطينة - واتهم فيها ابن باديس. وفي القضية الأولى تراجع المتهم عن زعمه بأن العقبي هو الذي دفعه إلى القتل. وفي القضية الثانية نجا الشيخ الحبيباتي من القتل فبطل الاتهام.

أما خطورة هذه القضية فنترك الأمر للشيخ عبد الحميد بن

---

(١) البصائر: العدد ١٥١ في ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧ هـ = ٤ فبراير ١٩٣٩ م.

باديس ليحدثنا بذلك قائلاً: (يُقتل ابن كحول ويتهم به العقبي وابن باديس ويقتل الحبيباتي ويتهم به ابن باديس فيستراح منهما، وتشل الحركة الدينية بالقبض عليهما ويدخل الرعب على غيرهما كما وقع فشل الحركات الأخرى)(١).

وما دام ابن باديس رأى هذه القضية من أخطر ما تعرضت له جمعية العلماء وبالتالي الحركة الإسلامية في الجزائر فإنه أولاها اهتماماً خاصاً وظل يكتب حولها فاضحاً أهداف الاستعمار من ورائها. وفي أحد مقالاته يقول: (فقضية العقبي اليوم شعبية عالمية والعقبي ضحية الشعب والقضية الجزائرية)(٢). ويكتب مقالاً آخر يقول فيه: (إن الذين دبّروا هذه المكيدة وأحكموا حلقاتها كانوا يريدون من وراء مصرع المفتي نسف جمعية العلماء ومحق رجالها والقضاء على الحركات الإسلامية الجزائرية قضاءً لا تقوم لها من بعد قائمة)(٣).

ومن الدلائل على اهتمام ابن باديس بهذه القضية أنه قطع دروسه في الجامع الأخضر لحضور محاكمة الشيخ العقبي. ويذكر أحد تلاميذه ثم زميله في التدريس الشيخ محمد الصالح رمضان أن ابن باديس كتب في الشهاب يقول: (مات لي أخ عزيز وابن وحيد وما تركت دروس طلابي لأجلهما، فهذه قضية

---

(١) البصائر: العدد ١٧٣ في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ = يوليه ١٩٣٨ م.
(٢) البصائر: العدد ١٤٣ في ١٧ شوال ١٣٥٧ هـ = ديسمبر ١٩٣٨ م.
(٣) الشهاب: ج ٦ م ١٥ جمادى الثانية ١٣٥٨ هـ = يوليه ١٩٣٩ م.

شخصية. أما قضية العقبي فقضية عامة ومن أجلها أوقفت الدروس بعد أن استسمحت طلابي وجئت لأحضر وكان دائماً في الصف الأول في قاعة المحكمة)[1].

ومن نشاطه السياسي اهتمامه بقضايا العالم الإسلامي والكتابة حولها ودعوة الجزائريين للاهتمام بإخوانهم المسلمين حتى بلغت نسبة ما احتلته هذه القضايا في صحافة ابن باديس وصحافة الجمعية ثلثها[2]. ومن أهم القضايا التي كتب حولها كثيراً قضية ليبيا وجهاد عمر المختار وقضية فلسطين. وعندما عقدت اللجنة البرلمانية مؤتمرها في القاهرة عام **١٣٥٧** هـ = **١٩٣٨** م أرسل ابن باديس برقيتين إلى المؤتمر إحداهما بوصفه رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والثانية بصفته شخصياً. جاء في الأخيرة: (نحن معكم)[3].

ومن الموضوعات التي كتب فيها ابن باديس مقالاً حول إصلاح التعليم بجامع الزيتونة أشار فيه إلى المراحل التاريخية للمطالبة بإصلاح التعليم في الزيتونة، وكيف تعثرت هذه المحاولات ويبدي أسفه لتأخر الإصلاح قائلاً: (فما أعظم أسفنا ـ معشر الزيتونيين ـ مما آلت إليه الحال، وما أشد ألمنا من هذا التأخير والانتظار).

---

(١) محمد الصالح رمضان، مقابلة شخصية معه، مرجع سابق.

(٢) أبو القاسم سعد الله، من تقديمه لكتاب المؤلف بعنوان «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، ط دار القلم.

(٣) من الوثائق المحفوظة لدى مديرية الوثائق بولاية قسنطينة (ملحق رقم ٤).

ثم يحدد وجوه الإصلاح المطلوبة بانياً ذلك على أهداف الدراسة في هذه الجامعة. فيذكر ابن باديس أن المتخرجين في الزيتونة ثلاثة أصناف رجال القضاء والفتوى، ورجال الإمامة والخطابة، ورجال التعليم. ولكل خطة من الخطط وسائل خاصة لتحصيل الكفاءة فيها والاضطلاع بها. ويفصل بعد ذلك حيثيات النظام الذي يقترحه بأن يكون هناك تعليماً عاماً يشترك فيه الجميع وتكون مدة التعليم فيه ثماني سنوات ويحصل المتخرج بعدها على شهادة عالم مشارك. ثم يوضح المدة المطلوبة لكل تخصص في القضاء والإفتاء والتعليم والخطابة(١).

وهناك أيضاً قضية فلسطين وما حدث فيها من تعاون بين اليهود الصهاينة ضد المسلمين فيها فكتب الشيخ عبد الحميد يوضح خطورة هذه الأحداث قائلاً: (تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيماً لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحاً لا يندمل)(٢). ثم يتحدث عن مسؤولية المسلمين تجاه هذه الأحداث فيقول: (وكل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هنالك من أرواح تزهق وصغار تيتّم ونساء ترمّل وأموال تُهتك

---

(١) الشهاب: ج ١٠ م ٧ في جمادى الثانية ١٣٥٠ هـ = أكتوبر ١٩٣١ م.
(٢) الشهاب: ج ٦ م ١٤ غرة جمادى الثانية ١٣٥٧ هـ = أغسطس ١٩٣٨ م.

وديار تُخرب وحرمات تُنتهك كما لو كان ذلك كله واقعاً بمكة أو المدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع)[1].

ابن باديس والطرقية:

لا يكتمل الحديث عن ابن باديس دون ذكر طرف من جهاده ضد الطرق الصوفية. فهو قد حاربها لأمرين: أحدهما ما أدخلته على الدين من انحراف وضلال وبدع وخرافات. وثانياً: لأنها أصبحت تسير في ركاب الاحتلال.

فمتى دخلت الطرق الصوفية إلى الجزائر وما عللها؟

يذكر أحد المؤرخين أن الطرق الصوفية بدأت تظهر في الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وازداد أتباعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر. وأهم هذه الطرق هي: القادرية، والرحمانية، والتيجانية، والشاذلية، ودرقاوة الشاذلية، والعليوية[2].

وقد جاء في سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء أن الطرق الصوفية (ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة تسترت بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب والعزوف عن الملذات الجسدية والتظاهر بالخصوصية وكانت تأخذ منتحليها بشيء من

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) مختار فيلالي، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني: ص ٥١.

مظاهر المسيحية وهو التسليم المطلق وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد إرهافاً إلى كمال الروح)[1].

وكتب الشيخ مبارك الميلي ـ أحد علماء الجزائر ـ كتاباً بعنوان «رسالة الشرك ومظاهره» ذكر فيه «مصائب الطرقيين»؛ فيما يلي بعض منها:

١ ـ التوسط بين الله وعباده في قبول التوبة.
٢ ـ الترفّع عن التكاليف الشرعية، والترخيص لأتباعهم في اتباع الشهوات وأهوائهم.
٣ ـ بث الجمود في الناس وتلقيح غفلتهم ثم حثهم على زيارتهم والرحلة إليهم لاستدرار أموالهم.
٤ ـ الاعتماد في دينهم على الخرافات والمقامات[2].

وفي الواقع نجد صورة لهذه الطرق نقلها الأستاذ مالك بن بني في كتابه «مذكرات شاهد القرن ـ الطفل»، جاء فيها: (وكان ثمة شيخ «مرابطي» آخر يأتي من الأغواط حيث اختار مقامه وكان يمثل الرحمانية، طريقة قاضينا الفاضل. وكان مشعوذاً.. فكان يعرف كيف يستولي على خيال معتنقي طريقة المريدين بأساليب بسيطة)[3].

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي، تصدير لسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الخامس ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م: ص ٢٧ (الطبعة المصورة).
(٢) محمد مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره: ص ٢٧٣ ـ ٢٨١.
(٣) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن ـ الطفل: ص ٣٢٤.

وصورة أخرى أنقلها من مقالة كتبها أحد الصحفيين في إحدى الصحف الجزائرية حول شيخ إحدى الطرق الصوفية بأنه كان في فرنسا فشاهد فتاة تعمل في أحد الفنادق فأعجب بها وأراد الزواج منها فلم يوافق حاكم عام الجزائر ولكن الكاردينال لافيجري كان يرى أن هذا الزواج في مصلحة المسيحية وسوف يجعل تنصير المسلمين من أسهل الأمور وأيسرها. وتم الزواج في الكنيسة الكبرى عام ١٩٠٧م. وأصبحت تعرف بأميرة الرمال. وظلت على ديانتها الكاثوليكية وكانت تعطف على (المضلِّلين المسيحيين فمدت لهم يد المساعدة، وكتبت باسم زوجها شيخ الطريقة كثيراً من الرسائل إلى مقاديم هذه الطريقة وأعيانها توصيهم خيراً بهؤلاء المضللين)[١].

ولئن كان زعماء النضال في الجزائر في بداية الاحتلال ينتسبون إلى الطرق الصوفية، فما كان ذلك ليمنعهم من مقاومة الاحتلال لأنهم لم يبتعدوا عن العقيدة السلفية. ولكن فرنسا رأت أن تستميل شيوخ هذه الطرق بالمناصب والمال والجاه حتى إن أحد الحكام الفرنسيين أعلن أن أفضل وسيلة للسيطرة على الشعب الجزائري هي التقرب من شيخ زاوية أو طريقة بمنصب أو مال. وقد أصبح هذا واضحاً فيما بعد حين سيطر الطرقيون على تسعة أعشار مقاعد المجالس المحلية على كل المستويات،

---

(١) محمد السعيد الزاهري، «إلى زيارة سيدي عابد»، الصراط السوي: عدد ٦ في ٤ رجب ١٣٥٢هـ = ٢٣ أكتوبر ١٩٣٣م.

وأربعة أخماس المناصب القيادية، وثلثي الوظائف في الإدارة الفرنسية[1].

ويقول أحد المؤرخين المعاصرين: إن الحكومة تمكنت من استجلاب الطرقية إلى جانبها تمدها بالمساعدات وتحميها، فكان من الطبيعي في نظر العلماء أن تصبح خدمة الطرقية خدمة للأجنبي ودعائمه[2].

وحين أعلن ابن باديس الحرب على الطرقية فإنما كانت هذه الحرب موجهة ضد الاستعمار الذي كان يؤيد الطرقية. ويؤكد هذا قول أحد المؤرخين الفرنسيين: (أصبحت كلمة المرابطين تدل على الجهل والتخلف، وكذلك أصبحت تعني المؤيدين للاحتلال والإدارة الفرنسية)[3].

وقد وصفت إحدى الوثائق الفرنسية هذا الصراع بين العلماء بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس وبين الطرقية بأنه كان صراعاً عنيفاً لا هوادة فيه ولا رحمة، ليس لأن الطرقيين مبتدعون في الدين فقط بل لأنهم متهمون بالإخلاص في تعاونهم مع فرنسا. وهذا يخالف العقيدة الإسلامية ويخالف أيضاً أفكار الجامعة الإسلامية[4].

(١) Situation Politique Dans Le Departement De constantaine. AGG 10H88[15].

(٢) شارل أندريه جوليان، أفريقيا الشمالية تسير: ص ٢٧.

(٣) Charles R. Ageron Histoire De L'Algerie Contemparain P. 338.

(٤) S.P.I.D.C. AGG 10H88[15].

وقد تجلت حرب ابن باديس للطرقية في طريقين: أحدهما نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة وبذل الجهود المضنية في ذلك، بل إن أعمال ابن باديس التعليمية منذ رجع من الحج عام ١٩١٣ م كانت موجهة ضدهم ولكن بصورة غير مباشرة في محاولة لكسبهم إلى جانبه فلما بدأ نشاطه الصحفي عام ١٩٢٥ م أخذ يوضح مخاطر الطرق الصوفية مع الاستمرار في التعليم وإصلاح العقيدة. ومن عبارات ابن باديس التحذيرية قوله: (واحذر كل (متريبط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقوة يزعم التصرف في الكون)[1].

كما ألف ابن باديس قبل ذلك رسالة في الرد على شيخ الطريقة العليوية الذي كتب أبياتاً من الشعر العامّي يخاطب فيها الرسول ﷺ بما لا يليق[2]. فكان رد الشيخ عبد الحميد مفصلاً للحال التي يجب أن يكون فيها المؤمن مع الرسول ﷺ. وقد نالت من التقريظ والعناية من العلماء الجزائريين والتونسيين والمغاربة ما ملأ قلب ابن عليوه وأنصاره غيظاً فدبروا مكيدة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس في ٩ جمادى الآخرة ١٣٤٥ هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٩٢٦ م، ونجّى الله الإمام من

---

(١) ابن باديس، الشهاب: عدد ٤٩ في ١٥ صفر ١٣٤٥ هـ = ٢٣ أغسطس ١٩٢٦ م.

(٢) أنجزها في ٢٦/٢٧ ذى الحجة ١٣٤٠ هـ بناءً على ما جاء في كتاب أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ص ٩٥.

هذا الاعتداء الأثيم. وهناك رأي بأن هذا الاعتداء كان بإيعاز من الإدارة الاستعمارية التي ضاقت ذرعاً بنشاط الأستاذ في الميدان الإصلاحي والوطني وكانت تعتمد بالدرجة الأولى على بعض هذه الطرق والزوايا[1]. وما كان من الممكن بالطبع أن يقال مثل هذا الرأي في حينه. ولعل مثل هذه الأعمال لا تفصح عنها الوثائق الفرنسية التي تم الإفراج عنها حتى الآن.

وبعد هذه الحادثة بسنوات تأسست جمعية العلماء المسلمين ودخلها بعض رجال الطرق الصوفية والعلماء الرسميين، ولكنهم لم يرقهم أن يكون علماء الإصلاح هم أصحاب الشأن فيها، فلمّا حان موعد انتخابات المجلس الإداري الجديد من العام التالي حتى خرج منها هؤلاء ـ علماء الدين الرسميون (الموظفون لدى الحكومة) والمتصوفة ـ وأنشأوا جمعية لهم باسم «جمعية علماء السنة» لتحارب العلم والإسلام باسم السنّة. وأخذت تنادي بأن الخلافات بينها وبين علماء الإصلاح تنحصر في مسائل شرعية دينية جزئية. وذكرت إحدى الصحف المؤيدة لهم هذه المسائل منها:

١ ـ اعتقاد الناس في ديانتهم ومذاهبهم.
٢ ـ شيوخ التصوف وطرائقهم في سلوكهم.
٣ ـ عادات الناس واحتفالاتهم في أتراحهم وأفراحهم

(١) أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ج ١ ص ٩٩.

واحتفالاتهم ومآتمهم طالبين عدم الخوض فيها[1].

وأنّى للشيخ عبد الحميد أن يسكت عما يراه مخالفاً للعقيدة الإسلامية الصحيحة؟!

أما صلة أصحاب الطرق الصوفية بفرنسا فقد كفتنا الوثائق الفرنسية مؤونة البحث مما أشرنا إليه آنفاً. ولعلنا نزيد الأمر وضوحاً بنقل وجهة نظر هؤلاء من خلال إحدى صحفهم التي كتبت تقول: (أما المسائل السياسية فقد صرحنا وما زلنا نصرح بأن مشروع الزوايا لم يؤسس لأجل الاشتغال بها لأننا ما زلنا نعتبر السياسة والدين متناقضان على الرغم مما يقوله المشاغبون بأن الدين لا ينافي السياسة)[2].

بل إن الأمر ظهر جلياً قبيل إعلان الحرب العالمية الثانية حين طالبت فرنسا الجهات الجزائرية المختلفة تقديم فروض الولاء والطاعة ضماناً للجبهة الداخلية فكان شيوخ الطرق أول من أدى هذا الواجب ـ في نظرهم ـ، ففي رسالة موجهة من شيخ الطريقة القادرية بالوادي يوجهها إلى الشعب الجزائري يطالبه فيها الانضمام للجيش الفرنسي أو بتقديم العون المادي للمجهود الحربي، ويقول فيها ما نصه: (وها أنا فرد منكم أقدِّم نفسي

---

(١) النجاح: العدد ١٤٤٥ في ١١ محرم ١٣٥٢ هـ = ٧ مايو ١٩٣٢ م.
(٢) الرشاد: العدد ٥ في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ = ٢٢ يوليه ١٩٣٨ م.

بإخلاص لدفع إعانة مالية عوضاً عن عجز صحتي البدنية قدرها عشرة آلاف فرنك)[1].

وبفضل من الله ثم بجهود مخلصة من الشيخ عبد الحميد بن باديس تضاءل وجود الطرق الصوفية حتى كادت تنقرض لولا أنها فتنة تطل برأسها بين الحين والآخر وتجد من أعداء الإسلام من يؤيّدها لحاجة في نفسه.

(١) من الوثائق الفرنسية الموجودة في الأرشيف الفرنسي الوطني لما وراء البحار: العلبة رقم 72 H 16.

نشاطات أخرى

جمعيات الكشافة:

وُجدت بالجزائر فرق كشفية كاثوليكية ويهودية شارك بعضها في عروض الاحتفال المئوي ـ مرور مئة سنة على الاحتلال ـ وكان بعض الجزائريين أعضاءً في هذه الفرق. لذا فكر بعض الشباب الجزائري في تكوين فرق كشفية خاصة بهم. فكان ابن باديس من المؤيدين لهذا العمل حتى اختارته بعض هذه الفرق أو الأفواج رئيساً شرفياً لها. وكان من اهتمام ابن باديس بالكشافة أن خلّد ذكر فَوْجَيْ «الرجاء» و«الصباح» في قصيدته المشهورة:

شعب الجـزائـر مسـلم ... وإلى العـروبـة ينتسب
من قـال حاد عن أصله ... أو رام إدماجاً له فقد كذب
يـا نشء أنت (رجاؤنـا) ... وبك (الصباح) قد اقترب

ولعل ابن باديس يرمي إلى أبعد من مجرد ذكر الفوجين وذلك التطلع إلى معركة التحرير.

الجمعيات الفنية والرياضية:

ساهم ابن باديس في تأسيس بعض الجمعيات الفنية والرياضية، ومنها «جمعية الشباب الفني» التي تأسست عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) وهدفها إحياء الفنون الإسلامية والاقتباس من الغرب كالفن التمثيلي لخدمة الفكر الإسلامي وقد اختير رئيساً شرفياً لها وكان من نشاطها التمثيلي (الدعوة إلى الأخلاق العالية وكبح شهوات النفس والتجنب للأمراض الفتاكة كالخمر والميسر والقمار والتزوج بالأجنبيات)[1] ويلاحظ هنا قرن التزوج بالأجنبيات بالأمراض الفتاكة كالخمر والميسر.

جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين:

تأسست هذه الجمعية عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) في تونس، وقد أشرف على تكوين مجلسها الإداري الأول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـ. ومن أهدافها تقوية الروابط بين الطلبة الجزائريين بتونس، ومساعدة الفقراء والمحتاجين منهم، وكذلك الإشراف على سير الطلبة من النواحي العلمية والأخلاقية[2]. ويلاحظ أن معظمهم كان من طلبة الجامع الأخضر الذي كان يشرف على التدريس فيه الشيخ عبد الحميد. وكان دائم الاتصال بهذه

---

(١) عبد الرزاق قسوم، ابن باديس والشباب، مجلة الرسالة ـ الجزائر: العدد ٣/٢ ص ٤٣ جمادى الأولى والثانية ١٤٠٠ هـ = أبريل ومايو ١٩٨٠ م.

(٢) البصائر: العدد ١٣٧ في ٤ رمضان ١٣٥٧ هـ = ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ م.

الجمعية فكان يجتمع بهم حين زيارته لتونس فيحاضرهم ويحثهم على الاهتمام بتلقي العلم وعلى السلوك الإسلامي الحميد. ومما يدل على اهتمامه بهم أنه كان يتلقّى الطلبة الخريجين ويساعدهم في إيجاد عمل لهم في الجزائر بعد عودتهم من تونس.

أما إرسال الطلاب إلى تونس فيرى أحد المؤرخين للحركة الفكرية للمهاجرين الجزائريين في تونس أن ابن باديس كان يهدف منها (إعادة الجسور الثقافية ومغالطة المستعمر الذي لم يتفطن بادىء الأمر إلى أهمية البعثات على مستقبل الثورة الثقافية في الجزائر إلا عندما فوجىء بطلائع تلك البعثات يساهمون في الحركة الإصلاحية ويؤلفون إطارها السياسي والصحفي والعلمي)[١].

وكان لابن باديس مشاركة في التكوين الفكري لهؤلاء الطلبة فعندما أراد الطلبة الجزائريون في تونس إصدار نشرة بعنوان «الثمرة الأولى» كاتبوا عدداً من العلماء الجزائريين للكتابة فيها، وكانت مناسبة الهجرة النبوية فكتب إليهم ابن باديس يقول:

(المهاجرون يحتفلون بالهجرة ومن أحق بالاحتفال بها منكم؟

نعم أنتم يا أبنائي الجزائريين مهاجرون، هاجرتم وطنكم لا لتستريحوا منه وتتركوه، فتكونوا هاجرتم بأنفسكم لأنفسكم، بل

---

(١) محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، مرجع سابق: ص ٣٥.

لتتعبوا أنفسكم ثم تعودوا إليه فتنقذوه.

وهكذا كانت هجرة محمد ﷺ وهجرة أصحابه رضي الله عنهم، فارقوا مكة ـ وهي كما قال النبي ﷺ في الكلمة التي ودعها بها عند الجزورة ـ أحب البلاد إليهم، وجاء إلى المدينة والحنين إلى مكة وطنهم الأول لم يفارقهم حتى دعا النبي ﷺ فقال: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أكثر)[1].

جمعية طلاب شمال أفريقيا في الجزائر، وجمعية طلبة شمال أفريقيا بفرنسا:

كانت جامعة الجزائر هي الجامعة الأم للكليات الفرنسية الموجودة في تونس والمغرب فلذلك كان هناك عدد من الطلبة التونسيين والمغاربة يدرسون في هذه الجامعة[2]. ولما كان للطلاب الفرنسيين جمعياتهم ونشاطهم الفكري والاجتماعي والثقافي الخاص بهم فقد رأى الطلبة المغاربة أن يؤسسوا جمعية تضمهم وتقوّي أواصر الوحدة بينهم، فأُسست الجمعية عام ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م). ولئن كان ذكر ابن باديس في نشاطات هذه الجمعية محدوداً فإن زملاءه من العلماء الجزائريين أعضاء جمعية العلماء كان لهم دور بارز في نشاط هذه الجمعية.

أما الجمعية الأخرى وهي جمعية طلبة شمال أفريقيا في فرنسا

(١) المرجع نفسه: ص ١١١ عن الثمرة الأولى: ص ٢٣، والحديث في البخاري، فضائل المدينة؛ وصحيح مسلم، الحج.

(٢) محمد الحبيب الهيلة، أستاذ تاريخ المغرب العربي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، مقابلة شخصية معه في منزله بالطائف يوم ١٤٠٨/٤/٤ هـ.

فالدافع لإنشائها لا يكاد يختلف كثيراً عن جمعيتهم في الجزائر سوى أن الأنظمة والقوانين الخاصة بحرية القول والاجتماع أكثر مرونة في فرنسا منها في الجزائر.

كانت أهم نشاطات هاتين الجمعيتين عقد مؤتمر سنوي لبحث قضايا الطلاب المغاربة في فرنسا والجزائر وبحث قضايا التعليم بصفة عامة. فعقد المؤتمر الأول في تونس عام ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠ م) ومثّل الجزائر فيه فرحات عباس رئيس جمعية طلبة شمال أفريقيا في الجزائر. وكان أهم قرار اتخذه هذا المؤتمر استبعاد المتجنسين، وكان المبرر لهذا القرار أن المتجنس في حكم من ترك الشريعة الإسلامية وأحكامها وقوانينها، ولا يُعَدُّ مسلماً، وأوضحت الجمعية أن الإسلام ليس عبارة عن اعتقاد فقط بل هو دين ونظام اجتماعي، والمتجنس وإن كان قد حافظ على اعتقاده فهو قد رفض باختياره نظامنا الاجتماعي[١].

أما الاجتماع الثاني فعقد في الجزائر في شهر ربيع الثاني عام ١٣٥١ هـ وحضره من العلماء الطيب العقبي والشاعر العالم محمد العيد آل خليفة وتوالت المؤتمرات تُعقد في تونس والجزائر والمغرب حتى عُقد الاجتماع الخامس في تلمسان في الفترة من ٥ ـ ١٤ جمادى الثانية ١٣٥٤ هـ = ٦ ـ ١٥ سبتمبر ١٩٣٥ م، وكان من المتحدثين في الجلسة الافتتاحية الشيخ البشير الإبراهيمي وقد كان المؤتمر تظاهرة إسلامية.

---

(١) الشهاب: ج ٣ م ٦، ذو القعدة ١٣٤٨ هـ = أبريل ١٩٣٠ م.

جمعيات التجار والجمعيات الخيرية:

ذكرنا مراراً أن ابن باديس رحمه الله لم يترك فئة من فئات الشعب الجزائري دون أن يتصل بها ويحاول أن يدفعها للعمل في سبيل وحدة الشعب الجزائري ورقيّه واستقلاله فقد كان يتصل بالتجار لدعم الجمعيات الخيرية وجمعية التربية والتعليم والجامع الأخضر. وتحت سيطرة الاستعمار (المستوطنين) واليهود على التجارة والصناعة والزراعة كان لا بد لابن باديس أن يفكر في تحطيم هذه السيطرة فسعى أولاً إلى تأسيس جمعية تجار قسنطينة عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) برئاسة بلقاسم بوشجة[١].

ولا ننكر أن المعلومات تُعْوِزُنا عن نشاطات هذه الجمعية إلا أنها كانت النواة التي تأسست على منوالها «جمعية آمال» التي ضمت تجاراً من جميع أنحاء الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، وكان لها نفوذ كبير في الاقتصاد الجزائري حتى إن السلطات الاستعمارية كانت تراقب أعمالها وتحسب لها ألف حساب، حيث أصبحت الجمعية تستورد من الخارج ونظمت أعمالها برأس مال وطني وكانوا يستفيدون من ذلك أفراداً ويستغلون التجار الفرنسيين لصالحهم، وقد ظهر أثر ذلك على المشروعات الخيرية من بناء المدارس، والمساجد، والنوادي، ومساعدة الفقراء[٢].

---

(١) علي مرحوم، مقابلة شخصية، مرجع سابق.

(٢) عبد الرحمٰن شيبان، مقابلة شخصية معه في الجزائر في ٩ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٣/ ١١/ ١٩٨٣ م.



الفصل الرابع
ابن باديس والعالم الإسلامي

قضايا العالم الإسلامي:

لا شك أن فرنسا أقامت حول الجزائر سوراً كالستار الحديدي لما علمته من أن العقيدة الإسلامية توحِّد بين القلوب وتجمع النفوس مهما شطت الديار واختلفت الألسنة واللغات. وقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ بعيد لولا أن الله قد أعاد إلى القلوب إيمانها وإلى النفوس إشراقاً وحباً يربط المسلم بالمسلم مهما علت هذه الأسوار ورسخت قواعدها. فالجزائريون تطلّعوا إلى إخوانهم في العالم الإسلامي يتعرّفون إلى قضاياهم ويتعلمون من تجاربهم ويستعينون بخبراتهم.

وكان للشيخ عبد الحميد بن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر؛ فكانت أول ضربة معول في هذا السور رحلة الشيخ عبد الحميد تلميذاً إلى تونس. وهناك اتصل بعلماء الزيتونة تلميذاً لا كالتلاميذ يتلقى علم ما في الكتب والمجلدات لينال شهادة، بل تلقى عنهم زيادة على ما

في الكتب ما عرفوه من أحوال العالم الإسلامي وما يموج فيه من تيارات فكرية وحركات إسلامية تحاول النهوض به وإقالته من عثاره. فلما أتم تعليمه في تونس ورجع إلى الجزائر بدأ التدريس واختار لذلك «الشفاء» للقاضي عياض. ويا له من اختيار! ابن باديس ذو العشرين ربيعاً يعلم أن الأمة أصابها المرض وتحتاج إلى الشفاء في سيرة المصطفى ﷺ.

بعد هذه البداية ينطلق ابن باديس ليحج بيت الله الحرام ويزور مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام فيشهد المنافع جميعها: أداء ركن وتعلم وتعليم. مكث في المدينة المنورة أشهر ثلاثة والحرم النبوي خلية نحل وهيئة أمم إسلامية فيها من علماء العالم الإسلامي من كل صقع. فالتقى بالشيخ حسين الهندي والعزيز بن الوزير وممثلين آخرين. وفي هذه الزيارة قابل الإبراهيمي وبحثا أوضاع الجزائر وما يمكن عمله إذا عادا، واتفقا على برنامج غير مكتوب لانتشال الجزائر مما وصلت إليه من مهانة ومذلة تحت الاحتلال. وقبل ذلك عرض الشيخ حمدان الونيسي على تلميذه أن يهاجر إلى المدينة ولكن انبرى الشيخ حسين الهندي فنصح له أن يعود ليجاهد في أرض الجزائر. وكان له ما أراد وإنه لتوفيق من الله أيّ توفيق.

ومن المدينة وفي طريق عودته إلى الجزائر زار ابن باديس مصر، وإن كانت المصادر التي بين أيدينا تضنُّ علينا بأسماء العلماء الذين قابلهم، فإنها تثبت مقابلته للشيخ محمد بخيت

المطيعي العالم المصري الشهير ونقل إليه ابن باديس رسالة من أستاذه الشيخ حمدان فسُرّ به وأجازه. ولكن هذه المصادر وهي صحف ابن باديس «المنتقد» و«الشهاب» ثم صحف الجمعية «السنة» و«الشريعة» و«الصراط» و«البصائر» تؤكد أن ابن باديس قد عرف كثيراً من علماء المسلمين وأفرادهم، وإلا كيف يحتفظ الشيخ محمد نصيف بجدة بمجلدات «الشهاب» و«البصائر» كاملة (إلا ما أضاع منها البريد). فقد أوردت «البصائر» في أحد أعدادها خبراً يقول: (لا يبرز عدد من البصائر إلا ويوجَّه حيناً إلى أهله بعناوينهم المسجّلة لدينا، ولكن تهاون بريديّ لا نعلم مصدره، فكثيراً تأتينا من فضيلة الشيخ محمد نصيف عين أعيان الحجازيين بجدة يطلب أعداداً من البصائر لم تصله)[1].

وقد كان اتصال ابن باديس بالعالم الإسلامي اتصالاً فكرياً روحياً وإن لم يكن ذلك بتبادل المراسلات لأنها كانت مراقبة مراقبة دقيقة من طرف السلطات الفرنسية[2]. ولكن الاتصال قد تم عن طريق الأفراد، أو عن طريق تبادل المطبوعات. وفي ذلك يقول مؤرخ فرنسي: (كان الشيخ عبد الحميد بن باديس على اتصال دائم بشكيب أرسلان «أمير البيان العربي» ومثير الدعاية للوحدة العربية..، وكذلك كان للشيخ ابن باديس مراسلات

(١) البصائر: العدد ١٥٨ في ٢ صفر ١٣٥٨ هـ = ٢٤ مارس ١٩٣٩ م.
(٢) أحمد حماني، إجابة مطبوعة على الآلة الكاتبة عن أسئلة قدمها له الباحث إسحق السعدي من جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

دائمة مع مفتي القدس الأكبر الشيخ الأمين الحسيني. . . ومن هؤلاء استطاع الشيخ ابن باديس الوقوف على آخر تطورات الأحداث في الساحة العربية منذ أول اجتماع للمجلس في القدس)[1].

وإننا نجد الدليل على هذا الاتصال أنه عندما وقعت حوادث قسنطينة بين المسلمين واليهود في جمادى الأولى ١٣٥٣ (أغسطس ١٩٣٤ م) قام رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي بالقدس بإرسال معونة إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس مقدارها خمسون جنيهاً وخمس شلنات (ثلاثة آلاف وستمئة وخمسة وستين فرنكاً) وتم توزيعها على عائلات المنكوبين[2].

ومن صور المشاركة الفكرية والروحية في قضايا العالم الإسلامي ما كتبه في الشهاب عن ذكرى الظهير البربري[3]. حيث كتب يقول: (لقد دأب إخواننا المغاربة على إحياء هذه الذكرى المؤلمة كل يوم ١٦ مايه = مايو ١٩٣٠). ثم يتوجه

---

(١) Ageron Ibid. P. 333.

(٢) الشهاب: ج ١ م ١١ محرم ١٣٥٤ هـ = أبريل ١٩٣٥ م. وانظر النجاح: عدد ١٦٨٤ في ١٩ ذي الحجة ١٣٥٣ هـ = ٢٤ مارس ١٩٣٥ م.

(٣) الظهير البربري مرسوم أصدره سلطان المغرب في ١٦ مايو ١٩٣٠ م يفرض على القبائل البربرية ترك التحاكم إلى الشريعة الإسلامية والاعتماد على أعرافهم وتقاليدهم. يراجع كتاب «الحركة الوطنية والظهير البربري» لمؤلفه الحاج الحسن بوعياد.

إليهم ببيان موقف علماء الجزائر ومشاركتهم ومساندتهم لإخوانهم المغاربة في هذه القضية، وينصح لهم بعد ذلك بمواصلة الجهاد: (وإننا لنشارك قلباً وقالباً شقيقتنا المغربية في هذا الحداد الوطني الديني، ونرفع أصواتنا إلى جانبها بالاحتجاج العميق والاستياء البالغ. ثم نقول لإخواننا رجال المغرب الأحرار: إن هذه المظلمة لا تزول عنهم إلاّ بفضل جهادهم ونضالهم واستماتتهم في سبيل كلمة الحق، ولن يُكتب لهم الفوز إلاّ بالتضامن وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف)[1].

وكانت فظائع الاستعمار الإيطالي في ليبيا دافعاً لابن باديس أن يظهر مشاركة الشعب الجزائري لإخوانه المسلمين فيما تعرضوا له من محن. فكتب ابن باديس يقول: (فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلبّي هذا النداء الصادر من القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ارتكبته إيطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابلس العربية المسلمة فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم. وتنذرها بأن الضمير الإسلامي والعربي قد استيقظ من نومه..)[2].

وكما تكون المشاركة في الأحزان والآلام فهناك المشاركة في الأفراح؛ فعندما عاد الشيخ عبد العزيز الثعالبي ـ زعيم حزب الدستور التونسي ـ من المنفى عام ١٩٣٧م أبرقت جمعية

---

(١) الشهاب: ج ٤ م ١٣ في ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ = ١١ يونيه ١٩٣٧ م.
(٢) البصائر: العدد ١٥٢ في ٢٠ ذي الحجة ١٣٥٧ هـ = ١١ فبراير ١٩٣٨ م.

العلماء إلى الأشقاء في تونس تهنئهم بعودة زعيمهم، ولكنها لم تكتف بذلك فرأت أن تنيب عنها رئيسها الشيخ عبد الحميد فتوجّه إلى تونس.

وهناك صورة من الروابط الفكرية التي قد يغفل الكثير عن ذكرها. وهي تدريس المناهج والكتب المصرية في كثير من بلاد العالم العربي ومنها الجزائر. وقد أدرك ابن باديس ما في هذا الأمر من إيجابيات وسلبيات فدعا عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م إلى عقد مؤتمر للمعلمين في المدارس العربية الإسلامية للنظر في مناهج التعليم والكتب المقررة. فكان من مبررات عقد هذا المؤتمر ما جاء في مقال لابن باديس: (أرى في مدارسنا ومعاهدنا بل في مدارس ومعاهد الشمال الأفريقي قاطبة أغلب الكتب الدراسية العصرية من تأليف المصريين، وضعوها لتدرّس في المدارس المصرية لذلك تجدها محشوّة بالكلام على مصر ورجال مصر ومجد مصر وفراعنة مصر وقطن مصر وتاريخ مصر وجغرافية مصر وحتى النيل المصري السعيد.. الخ)[1]. ولعل هذا الأمر كان من نتائج تدخّل المستشارين الإنجليز وعلى رأسهم دنلوب في وضع المناهج والكتب الدراسية المقررة في مصر. إلى أن أصبحت «المصرية» شيئاً مقدّساً. ولكن هذا لم يكن مطلقاً مبرِّراً لقطع الصلة مع مصر. ويؤيد ذلك أن الشهاب كان لها مكتبة تجارية باسم «مكتبة الشهاب الفنية» وقد أعلنت في جريدة

---

(١) البصائر: العدد ١٠٥ في ٦ ربيع الثاني ١٣٥٦ هـ = ٢٥ جوان ١٩٣٧ م.

«الصراط» عن وصول الوسقة الأولى وتشمل عدداً من الكتب القادمة من مصر[1].

وكثيرة هي الأدلة على الاتصال بين الجزائر والعالم الإسلامي، فمنذ أول أعداد «المنتقد» نجده ينقل أخبار المسلمين في روسيا حيث يقول الخبر: (هدم الشيوعيون معهداً إسلامياً في مدينة طاشقند اسمه «مدرسة كابيلربي» وأخذوا ينشئون في مكانه تمثالاً للزعيم لينين). ثم يستنتج الخبر أن هذا العمل وأمثاله يؤكد (عداء البولشفيك للإسلام والمسلمين كما هم أعداء جميع المتدينين)[2].

وبعد سنوات تنشر الشهاب مقالاً مقتبساً من مجلة «الفتح» يوضح دور اليهود في الثورة البلشفية وإنهم المسيطرون عليها، والدليل على ذلك ما يتمتع به اليهود من حقوق وامتيازات وهذا ما قاله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة عام ١٣٤٤ هـ: (إنهم «البولشفيك» لا يفرّقون بين أهل دين ودين بل يضطهدون أهل الأديان جميعاً إلا أن اليهود سالمون من هذا الاضطهاد ومتمتعون بحقوق لا تتسنى لأحدٍ سواهم، بل الحكومة كلها في أيديهم). وفسر ذلك بأنه (النفاق والدهاء فاليهود بلشفية في الظاهر، وهم في الباطن لا يفرطون في مثقال ذرة من

---

(١) الصراط السوي: العدد ١١ في ٩ شعبان ١٣٥٢ هـ = ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣ م.
(٢) المنتقد: العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ = ٢ يوليه ١٩٢٥ م.

يهـوديتهم، وبهـذا المكـر الكبّـار نجحـوا دون سـائـر أهـل الأديان)[1].

ولعل قضية فلسطين من أبرز القضايا التي نالت اهتمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، فهو لم يعشْ حتى تتأسس دولة اليهود على أرض المسجد الأقصى، ولكن الأحداث التي كانت تقع هناك لفتت الأنظار إلى المخطط اليهودي الماكر. فما كان من ابن باديس إلا أن يرسل الاحتجاج على الأحداث الدامية التي وقعت في فلسطين منذ أوائل الثلاثينات، وكان احتجاجه موجَّهاً إلى وزارة الخارجية الفرنسية. وما كان الاحتجاج هو الوسيلة الوحيدة بل كان الشعب الجزائري على فقره وحاجته يجود بما يستطيع لمساعدة إخوانه في فلسطين[2].

واهتم ابن باديس رحمه الله بالأحداث الفكرية فلما قرر أدباء مصر مبايعة شوقي أميراً للشعراء أسرع الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى توجيه النداء إلى الأدباء الجزائريين لإقامة حفل تكريم لشوقي ولكن السلطات الفرنسية رفضت الإذن لهم بذلك، فكتب في الشهاب يقول: (وقد لبّى أدباء الجزائر نداءنا وكدنا نعقد حفلة التكريم لولا تحذير إداري عرض لنا تركنا له ما عزمنا عليه

---

(١) الشهاب: ج ١٠ م ٧ ص ٦٢٢ وما بعدها، جمادى الثانية ١٣٥٠ هـ = أكتوبر ١٩٣١ م نقلاً عن مجلة الفتح، مقابلة أجراها محمد تقي الدين الهلالي مع موسى جار الله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة ١٣٤٤ هـ.

(٢) الصراط: العدد ١١ في ٩ شعبان ١٣٥٢ هـ = ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣ م.

متعجِّبين من الوقوف في سبيل حفلة أدبية محضة)[1]. نعم إنها حفلة أدبية محضة ولكنها تأكيد للرابطة الإسلامية واحتفاء واهتمام بشأن شاعر معروف، وفي ذلك تمجيد للغة العربية وإعلاء لشأنها الأمر الذي حاربته فرنسا منذ بداية الاحتلال.

لقد قدمنا الكثير من الأمثلة على تفاعل الجزائر ولا سيما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخ عبد الحميد مع الأحداث الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي وأوضحنا صوراً مختلفة من هذا التفاعل. وفيما يلي نقدّم صوراً أخرى وصلت إلى الجزائر عن طريق مطبوعات الجماعات الإسلامية في العالم العربي الإسلامي، وإليك نماذج منها:

أولاً: أصدرت مشيخة الأزهر نداءً تحذر فيه المسلمين من المدارس «التبشيرية» (التي ظاهرها خدمة العلم وباطنها فتنة المسلمين عن دينهم). ومما جاء في هذا النداء أيضاً: (أيها المسلمون إننا لا نجد بُدّاً من أن نسدي إليكم النصح خالصاً ونتلوا عليكم حكم الله الرهيب فيمن أدخل أولاده في هذه المدارس. إن من أدخل ولده أو قريبه هذه الدور وهو يعلم أنها أُعِدّت لإخراج الناس من دينهم فهو مرتدّ لم يكن الله ليغفر له ولا ليهديه سبيلاً..)[2].

ثانياً: تطلع الجمعيات إلى الاتصال بالشيخ عبد الحميد

---

(١) الشهاب: العدد ١٠٥ في ١٤ محرم ١٣٤٦ هـ = الموافق ١٤ يوليه ١٩٢٧ م.
(٢) الصراط: عدد ٥ في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٢ هـ = ١٦ أكتوبر ١٩٣٢ م.

ابن باديس لما عرفوه عنه من علم وفضل وجهاد. فقد نشرت جريدة «الجامعة الإسلامية» التي تصدر في مدينة يافا بفلسطين في عددها **٣٢٩** تحت عنوان «رغبة أنصار الأستاذ باديس» ما نصه: (إن الجم الغفير من إخواننا وأصدقائنا هنا في (عدن) يرغبون بالتعرف بحضرة الأستاذ العلاّمة الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالمغرب الأقصى، ويودون معرفة عنوانه بالضبط وكذلك التشرف بمطالعة جرائده وجرائد جمعيته التي نسمع عنها ولا نقرأها لأنها لا تصلنا. فيا حبذا لو يتفضل حضرة الشيخ المومى إليه ويتحفنا بإرسال جرائده إلى عدن ولا سيما نادي الإصلاح العربي الإسلامي)[1].

ثالثاً: كانت مجلة الشهاب تتلقى العديد من الصحف الإسلامية فتنقل عنها ما تراه مناسباً لنشر الوعي الإسلامي، وتبصرة القارىء الجزائري بقضايا أمته ودينه. ولننقل فيما يلي نماذج من هذه الصحف:

أ ـ عن مجلة «صدى الشبان المسلمين» بالبصرة (العراق) محاضرة بعنوان «أسباب تحامل أوروبا على الإسلام» للبارون النمساوي عمر افرنهلز ألقاها في الكلية الإسلامية بالهند جاء فيها: (أما المانع الآخر في سبيل انتشار الإسلام هناك فنجده في التحامل والتعصب، إن المسألة مسألة

(١) الصراط: عدد ١١ في ٩ شعبان ١٣٥٢ هـ = ٢٧ نوفمبر ١٩٣٢.

جمود نفساني، فقد خلق الكفاح السياسي القديم بين المسلمين والمسيحيين من النفور جواً من الأغلاط وسوء التفاهم، ومن النفور والعداوة بل من الزور والبهتان والقذف الظالم في حق الإسلام ونبيه الكريم ﷺ)[1].

ب ـ ونقلت الشهاب مقالاً عن مجلة «الكفاح العراقية» من عددها الممتاز في ذي الحجة ١٣٥٧ هـ = يناير ١٩٣٩ م بعنوان «لن يصلح شأن الأمم الإسلامية حتى يوجهوا سياستهم شطر الإسلام» جاء فيه: (ما دامت الشعوب الإسلامية الآن وزعماؤها وقادتها لا يفكرون إلا في مصادقة الدول الأجنبية ومحاكاتها وتقليدها والاندماج في أوضاعها فلن تقوم للشعوب الإسلامية قائمة.. ولن يرجع لهم عزّ ولا يبلغون مجداً.. فجل زعماء السياسة في العالم الإسلامي لهذا العهد لم يدرسوا الإسلام دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، إنما هم كلهم أبناء مدرسة السياسة الأوروبية المبنية على أنقاض القرون المسيحية الوسطى في أوروبا. وقد كانت الكنيسة إذ ذاك العدو اللدود للسياسة والعلم فنشأوا هم أشد عداوة لها وجروا في سبيل عداوة المسيحية عداوة كل دين بلا تمييز في طبائع الأديان. وطغت العناية بتاريخ أوروبا على العناية بتاريخ الشرق ودينه ومجده حتى إن الطبقات الراقية المتعلمة من الأمم الشرقية الإسلامية لا

---

(١) الشهاب: ج ١ م ١١ غرّة محرم ١٣٥٤ هـ = أبريل ١٩٣٥ م.

تكاد تعرف عن تاريخ الإسلام ولا عن تاريخ بلادها في عهد النهضة شيئاً يُذكر)[1].

جـ - عن «مجلة الرابطة العربية» حول دعوة العلماء إلى قيام مجمع فقهي إسلامي قالت المجلة: (ولقد دعا العلماء في مختلف العصور إلى وجوب توحيد المذاهب والتوفيق بين العقائد فلم تصادف دعوتهم نجاحاً لأنها كانت دعوة فردية جاءت في عصور الجمود والخمول.. وفي هذه السنة وجّه الأستاذ الجليل عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثل هذه الدعوة إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وقام فضيلته بدوره فأخذ آراء كبار العلماء في العالم الإسلامي)[2].

أما أخبار الجزائر في الصحف الإسلامية فقد اخترت صحيفة «الإخوان المسلمون» مثالاً لما كان يصلها من أخبار. وفي العدد التاسع والعشرين الصادر في ١ ذي الحجة **١٣٥٣** هـ الموافق ٨ مارس **١٩٣٥** م كتبت هذه الصحيفة تقول: (**الهياج في تونس والجزائر**: ردّدت الصحف الإنجليزية والفرنسية نفسها أن الحالة في تونس والجزائر على جانب من الخطورة والاضطراب وهياج الخواطر، الأمر الذي دعا المسيو رينيه (وزير الداخلية الفرنسية)

---

(١) الشهاب: ج ٢ م ١٥ صفر ١٣٥٨ هـ = مارس ١٩٣٩ م، نقلاً عن الكفاح العراقية بقلم الأستاذ محمد عبد السلام القباني. (ما أشبه الليلة بالبارحة!).

(٢) البصائر: العدد ١٢٦ في ١٥ جمادى الثانية ١٣٥٧ هـ = ١٢ أوت ١٩٣٨ م.

إلى إعلان سفره بسرعة إلى شمال أفريقيا ليراقب الحالة بنفسه)، ثم يواصل الخبر حديثه عن نشاط المسلمين واشتداد نقمتهم على الاحتلال. كما أورد الخبر التدابير التي اتخذتها السلطات الفرنسية ضد علماء الجمعية بمنعهم من الوعظ في المساجد[1].

يُلاحظ على هذه الأخبار أنها لم تكن دقيقة ولا تعطي صورة واضحة عن الأحداث في الجزائر حيث إن الجريدة نفسها نشرت خبراً في عدد لاحق (العدد ٤٠) أوردت فيه اسم ابن جلول أكثر من مرة مكتوباً بصيغة خاطئة (ابن جلود)[2].

ولقد كان لمثل هذه الأخبار وعدم دقتها تأثير في ابن باديس جعله يكتب (مضت حقبة من التاريخ كاد الشرق العربي أن يَنسى هذا المغرب، وإلى عهد قريب كانت صحافة الشرق - غالباً - لا تذكره إلا كما تذكر قطعة من أواسط أفريقية ومجاهلها. . ولكن هذا المغرب العربي - رغم التجاهل والتناسي من إخوانه المشارقة - كان يبعث من أبنائه من رجال السيف والقلم من يذكّرون به ويشيدون باسمه ويلفتون نظر إخوانه المشارقة إلى ما فيه من معادن العلم والفضيلة ومنابت للعز والرجولة ومعاقل للعروبة والإسلام)[3].

---

(١) الأخوان المسلمون: العدد ٢٩ في ١ ذي الحجة ١٣٥٣ هـ = ٨ مارس ١٩٣٥ م.

(٢) المرجع نفسه: العدد ٤٠.

(٣) الشهاب: ج ٥ م ١٠ في جمادى الأولى ١٣٥٦ هـ = ١٠ يوليه ١٩٣٧ م.

هذا التباعد الظاهري لم يمنع الحركة الإسلامية أن تتقارب في النهج والأساليب ذلك أنها تستقي من نبع واحد كتاب الله وسنّة خير المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم. وفي المبحث القادم نعقد مقارنة بين الإمامين عبد الحميد بن باديس وحسن البنا رحمهما الله لنرى مدى هذا التقارب والتشابه.

بين ابن باديس وحسن البنا:

تحدث أحد المؤرخين لحركة الإخوان المسلمين عن خصائص دعوة الشيخ حسن البنا، فأجملها في سبع خصائص[1]، وإنني سأضيف مع كل خصيصة مدى اشتراك ابن باديس مع البنا فيها والاختلاف إن وُجد.

الأولى: التركيز على الاتصال بالجماهير ومخالطتهم والتفاهم معهم والامتزاج بهم لتكوين قاعدة عريضة، لأنه إذا كان الاستعمار قادراً على السيطرة على الكبراء وذوي المناصب، فلن يستطيع أن يحكم عامة الشعب.

وهل عمل ابن باديس سوىٰ هذا حين أمضى عشر سنوات يعلم ويربّي قبل أن يبدأ مرحلة أخرى من مراحل الدعوة وهي الخروج بها إلى النطاق العلني بالصحافة؟

وقد كان خلال المرحلة الأولى ثم التي تلتها يتصل ويمتزج

(١) محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ: ج ٢ ص ٣٩٧ وما بعدها.

بـطبقات الشعب جميعهـا تجاراً وعمـالاً وموظفين ومـدرسين وغيرهم.

الثانية: لم يقتصر البنا على الخطابة فقد استخدم أسلوب الاتصال الشخصي وكان يجتمع بمن يتوسم أنه تأثر بخطابه فيوجههم إلى العمل الإسلامي المنظم.

وهكذا كان ابن باديس يصنع فالخطابة كانت جزءاً من عمله حيث كان يتصل شخصياً بأولئك الذين يستمعون إلى خطبه يزورهم في بيوتهم وأعمالهم، بل وكان يجلس في أحد مقاهي قسنطينة القريب من منزلـه ومقر عمله (المسجـد) أو مكتب الشهاب. ومن أمثلة ذلك قوله: (جمعتني ليلة بثلة من شبابنا المتعلم التعليم الأوروبي.. فانساق بنا الحديث إلى ما تكسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها)[١].

الثالثة: لم يكتف البنا بأسلوب التعليم والتثقيف على أنه (الوسيلة الوحيدة للنهوض بأعباء الدعوة.. فقد رأى الاقتصار على هذه الناحية دون المشاركة في جميع مسؤوليـات الأمة ومشاكلها في مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية جنوحاً بالثقافة والعلم إلى الفلسفة والعقم).

ورغم اختلاف البيئة وظروف الدعوة إلا أن ابن باديس لم يقتصر على التعليم والتثقيف بل ساهم في تكوين نوادٍ اجتماعية

---

(١) ابن باديس، قيمة الرجل بقيمة قومه، الشهاب: ج ٨ م ١١ في شعبان ١٣٥٤ هـ = نوفمبر ١٩٣٥ م.

ونوادٍ رياضية، وجمعيات للتجـار، وساهم في تعليم المـرأة وإصلاح شأنها، واهتم بالفقراء فأسس الجمعيات الخيرية. كما كانت له مساهمات في الحركة السياسية كما مر معنا في الفصول السابقة.

الرابعة: عدم الفصل بين الدين والسياسة (حتى لا تتحول السياسة إلى أشكال ومظاهر قائمة على أهواء الزعماء وأغراض الحكام بل جعل السياسة نابعة من الدين متفرعة عنه..).

وقد خطا ابن باديس خطوات كبيرة في هذا المجال فكان الزعيم المجلّي رغم أنه لم يشارك رسمياً في أيٍّ من المجالس الفرنسية النيابية. وقد اعترف له السياسيون بالزعامة والقيادة في حياته. ويبدو أن أتباعه لم يدركوا هذه المكانة لقائدهم فبعد موته رحمه الله عاد السياسيون المحترفون للسيطرة على ساحة العمل السياسي.

الخامسة: كان موقف البنا من البدع والطرقية هو الالتفاف حولها وتطويقها من باب خلفي دون الوقوف من أصحابها موقف التحدِّي والرمي بالشرك والنعت بالكفر الذي يخلق العناد والتعصب ويقطع الصلة ويقضي على فرص التفاهم بينهما.

لم يُعرف عن ابن باديس رحمه الله إطلاقه نعوت الكفر والشرك على أتباع الطرق الصوفية المبتدعين فقد كان قلمه عفيفاً نزيهاً بالرغم من أن المعركة بين أتباع الطرقية وبين الإصلاح احتدمت إلى درجة كان السِّباب المقذع هو المستخدم من قبل

الطرقيّين إلا أن «الشهاب» وقبله «المنتقد» لم ينغمسا في هذا أبداً. بل عُرف عن ابن باديس أنه كان يزور الزوايا ويقبل دعواتهم له عندهم ويتكلم معهم حول العقيدة الصحيحة دون أن يجرحهم أو ينتقدهم مباشرة. وقد كسب عن هذه الطريقة قلوب الكثيرين فأرسلوا أبناءهم إلى الجامع الأخضر ليتلقوا العلم فيه.

السادسة: الاهتمام بالتربية الروحية الممزوجة بروح الفتوة والقوة، أو بمعنى آخر بأسلوب تربوي يطهر النفس ويزكيها تطهيراً يعدها لحمل أثقل التبعات ويؤهلها للتضحية بالنفس والمال في سبيل الله.

وما كان ابن باديس ليجهل قيمة التربية الروحية فقد كان هو رحمه الله قدوة في هذه التربية فربط بين العبادة والعمل. بل إن من صور اهتمامه بالفتوة والقوة تقريبَه لأولئك الذين أدَّوْا الخدمة العسكرية وحثهم على تعليم إخوانهم. ومن أبرز هؤلاء الفضيل الورتلاني الذي ترأس جمعية شباب المؤتمر الإسلامي الذي كان تكوينه أشبه بالفرق العسكرية. ومن ذلك أيضاً مساهمته في إنشاء الفرق الكشفية والرياضية. كل ذلك ساهم في الإعداد البدني والروحي في آن واحد. حتى إذا قامت حرب التحرير وأدى الضعف الإيماني لدى بعض أتباع الأحزاب السياسية إلى الخيانة لم تعرف خيانة واحدة من أتباع جمعية العلماء طوال سبع سنوات ونصف هي مدة هذه الحرب.

السابعة: عناية حسن البنا بأرباب اللسان والقلم أمثال محمود

سامي البارودي وشكيب أرسلان وغيرهم كانت عناية فائقة حيث كان يوجه أنظار الإخوان إلى الاهتمام بهؤلاء ودراسة أعمالهم حتى نشأ في صفوف الإخوان عدد كبير بلغوا شأواً بعيداً في فنون الأدب[1].

وانظر إلى صحف الجمعية وما فيها من أدب راقٍ، وإلى مؤتمراتها السنوية وما انطلق منها من شعراء وخطباء كل عام، تجد أن هذه الحقيقة لم تغب عن الشيخ ابن باديس. بل إن ما يوجد من خطباء وشعراء اليوم في الجزائر - درس الكثير منهم في مدارس الجمعية وتربَّوْا على تراثها يستقون منه - لدليلٌ على ذلك.

وفي دراسة أخرى هدفت إلى المقارنة بين دعوة الإصلاح الإسلامي عند ابن باديس والدعاة المعاصرين في المشرق العربي أوضح الكاتب الوسائل المشتركة فأشار إلى أن كلاً من الإمام محمد عبده وحسن البنا وابن باديس جعلوا القرآن الكريم محور دروسهم ومحاضراتهم. فقد كان للشيخ حسن البنا درس الثلاثاء، ولمحمد عبده تفسير المنار، وأما الشيخ عبد الحميد فقد أتم تفسير القرآن في خمس وعشرين سنة. وكانت كثير من دروسه وخطبه تنطلق من الحديث عن آية أو معنى من معاني القرآن الكريم.

---

(١) محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ، رؤية من الداخل: ص ٣٩٧ وما بعدها.

أما الوسيلة الأخرى فهي الصحافة فبعد تأسيس جماعة الإخوان بقليل بدأ الإخوان يصدرون صحفهم فكانت جريدة «الإخوان المسلمون»، ثم «النذير» ثم «التعارف» فمجلة «الإخوان المسلمون» ثم جريدتهم اليومية. كما أصدر الإخوان مجلة «الشهاب» تأسيّاً بشهاب ابن باديس. وهكذا فعل ابن باديس فقد بدأ بالمشاركة مع غيره في جريدة «النجاح» ثم انطلق ليؤسس مع نخبة من مثقفي قسنطينة جريدة «المنتقد» ولما أوقفتها السلطات الفرنسية أسس جريدة «الشهاب». وبعد تأسيس جمعية العلماء صدرت صحفها «السنَّة» و «الشريعة» و «الصراط» ثم «البصائر». وهناك عدد كبير من الصحف الإصلاحية التي وإن لم يشارك فيها بالكتابة فقد شارك فيها بالرأي والمشورة نذكر منها «الإصلاح»، و «صدى الصحراء»، و «البرق»، و «الليالي» و «الثبات»، و «المرصاد»، و «الجزائر»، وغيرها[1].

وقد حاولت في أثناء بحثي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها الوطني أن أعثر على وثائق تؤيد وتؤكد وجود صلة بين الشيخ حسن البنا وعبد الحميد بن باديس وبخاصة بعد أن قرأت ما قاله صاحب كتاب «الإخوان المسلمون ـ أحداث صنعت التاريخ»: (إن الشيخ حسن البنا كان يؤيد خطة ابن باديس في عرقلة الأسلوب الفرنسي في القضاء على اللغة العربية وقطع الصلة بين الشعب الجزائري والقرآن الكريم وذلك بنشر

(١) محمد فتحي عثمان، مرجع سابق.

اللغة العربية وإنشاء المدارس مهما لقيه من مصاعب وأهوال. وكان الشيخ حسن البنا كثيراً ما يبعث بالرسائل والبرقيات لشدّ أزر السيد عبد الحميد، كما كان يكتب المقالات الضافيـة في مجلة الإخوان لهذا الغرض ويعلن الاحتجاج على السلطات الفرنسية لمصادرتها لمدارس السيد عبد الحميد واضطهاد رجاله العاملين معه)[1].

ولكن المؤلف لم يشر إلى هذه المقالات الضافيـة أو يقتطف منها ما يشفي الغليل ويعين الباحث. وإننا نرى أن هذه الصلة قد وجدت بطريقةٍ ما بين الاثنين. وقد اتصلت بابن الشيخ حسن البنا حين كان في الرياض قبل عامين لعلّي أجد صوراً لهذه الرسائل ولكنه لم يفدني بشيء. كما اتصلت بالشيخ فتحي الخولي الذي لم يعرف شيئاً عن هذه المراسـلات. ولكني وجدت أوجهاً من الشبه في أسلوب العمل ما يبعث الدهشة والاهتمام، سأورده فيما يلي:

أولاً: الرحلات: لقد كان من وسائل نشر الدعوة الإسلامية التي استخدمها الشيخ حسن البنا القيام بالرحلات المتواصلة إلى أنحاء مصر المختلفة، وكان في هذه الرحلات أول ما يزور المسجد ثم يزور المسؤول الإداري عن المنطقة قائلاً في ذلك (وأتوا البيوت من أبوابها)، ثم يتحدث إلى الناس في المسجد، ويزورهم في أماكن عملهم ويتعرف إلى أبناء بلده وقضاياهم

---

(١) محمود عبد الحليم، مرجع سابق: ص ٣٩٨.

ومشكلاتهم. وهكذا كانت رحلات الشيخ عبد الحميد وقد نقلنا صورة منها في بداية هذا الكتاب. ولعل الرحلات اقتداءً بسيرة المصطفى ﷺ في الخروج إلى القبائل في مضاربهم وحين يقدمون إلى الحج. وزيارة المسؤول الإداري أو الوالي أو المير[1] كزيارة شيخ القبيلة وأشرافها وما كان يحرص عليه ﷺ. ثم القيام بالنشاط الدعوي بالاتصال بأفراد القبيلة أو الشعب. فرحلات المصطفى ﷺ إشعار للدعاة ليحملوا دعوتهم إلى المدعوّين فلا ينتظروهم أن يأتوا إليهم. ثم كان إرسال الرسول ﷺ الرسل إلى كسرى وهرقل والمقوقس وملوك العرب.

ثانياً: نشر الشيخ عبد الحميد بن باديس عام **١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م** دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها فجاء عدد الأصول عشرين بنداً أو فقرة. وهكذا كانت الأصول العشرون التي أسماها الإمام حسن البنا «أصول دعوتنا» عام **١٩٣٦ م** عشرين أصلاً. أما التشابه بين هذه وتلك فكبير جداً. ولنستعرض بعضها فيما يلي:

● الأصل الأول: الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولة ووطن وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة.

وفي دعوة جمعية العلماء كان الأصل الثاني هو: ١ ـ الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به لأنه:

---

(١) المير: رئيس البلدية.

أولاً: يدعو إلى الأخوة الإسلاميه بين جميع المسلمين.

ثانياً: يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس.

ثالثاً: لأنه يفرض العدل فرضاً عاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

رابعاً: يدعو إلى الإحسان العام.

خامساً: يحرّم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أيّ أحد على أي أحد من الناس.

سادساً: يمجّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير.

سابعاً: ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه.

ثامناً: يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤون.

تاسعاً: شرّك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرع مثل القِراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال.

عاشراً: يدعو إلى رحمة الضعيف فيُكفى العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويُعان المضطر ويغاث الملهوف ويُنصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم.

حادي عشر: يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه.

ثاني عشر: يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس.

● الأصل الثاني: القرآن الكريم والسنّة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام ويُفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلّف ولا تعسّف، ويُرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقات.

أما عند جمعية العلماء فهذه الأمور منصوص عليها في المادة الثالثة والرابعة والخامسة حيث تقول هذه المواد: (القرآن هو كتاب الإسلام، والسنّة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن، وسلوك السلف الصالح الصحابة والتابعين وأتباع التابعين تطبيق صحيح لهدي الإسلام، ومفهوم أئمة السلف أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنّة).

● الأصل الثالث عشر: كل بدعة في دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة أم بالنقص منه ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

وعند جمعية العلماء تقول المادة السابعة: البدعة كل ما أُحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله وكل بدعة ضلالة.

أما الأصول الأخرى فهي تقترب أو تبتعد قليلاً أو كثيراً لكنها تهدف جميعاً إلى أمر واحد وهو إيضاح حقيقة هذا الدين وما يهم المسلم معرفته من أصول دعوته.

ثالثاً: إنشاء «جمعية العلماء» في الجزائر و«الإخوان المسلمون» في مصر.

يذكر الإبراهيمي أنه في إحدى زيارات ابن باديس لسطيف عام ١٩٢٤ م تذاكر هو والشيخ عبد الحميد في أحوال الجزائر فاقترح ابن باديس تأسيس جمعية «الإخاء العلمي» لتضم علماء قسنطينة. وقد طلب ابن باديس من الإبراهيمي أن يعدّ مسوّدة القانون الأساسي للجمعية. ولكن حدث بعد ذلك ما صرفهما عن إتمام إنشاء هذه الجمعية وقد أشار الإبراهيمي فيما بعد إلى أن الأمة لم تكن حينئذ مستعدة لقبول مثل هذا العمل وتأييده وإحاطته بالعناية والرعاية[١].

لم يمض على هذا الحادث سنة أو يزيد قليلاً حتى أسس ابن باديس مع جماعة من مثقفي قسنطينة جريدة «المنتقد» فارتفع النداء من على منبرها للاجتماع والاتحاد. وتساءل ابن باديس كيف يجتمع أهل الباطل في جمعيات وجماعات وليس لعلماء المسلمين جمعية تضمهم أو حزب ينتظمهم؟!

أما الشيخ حسن البنا فمنذ يفاعة شبابه وهو يشارك في الجمعية تلو الجمعية وكان من هذه الجمعيات الجماعة الحُصافية.

فأمْرُ الجماعة والجمعيات كان معروفاً لكلا الداعيتين، حتى

(١) محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مرجع سابق.

إذا تهيأت الأسباب أسس كل منهما جمعية كان لها شأن عظيم في الدعوة إلى الله والعودة إلى الإسلام النقي الصافي. فتأسست جمعية العلماء عام ١٩٣١م تضم علماء يمثلون أنحاء القطر الجزائري لأن ابن باديس وزملاءه كانوا قد انتظموا في عمل واحد قبل تأسيس الجمعية؛ وكانت جماعة «الإخوان» قد تأسست قبلها بثلاث سنوات فقط في الإسماعيلية حيث كان الشيخ حسن البنا يعمل معلِّماً فكانت بداية متواضعة ولكنها كانت القاعدة القوية الصلبة التي انتقلت منها إلى القاهرة حين انتقل إليها حسن البنا.

ورغم اختلاف الظروف السياسية في كلا البلدين إلا أن هناك كثيراً من أوجه الشبه بينهما. فالعاصمة السياسية للبلاد هي مقرّ كلا الجمعيتين ثم إن الفروع التي تؤسَّس في المناطق المختلفة أُطلق عليها شعبة (جمعها شعب). ولا ندري الآن مَن الذي كان أسبق باختيار هذا الاصطلاح.

أما في العمل فإن رحلات الرئيس في الجمعيتين لإنشاء شعب جديدة وتنظيم أمور الجمعية تكاد تتشابه تماماً كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. بل إن الجمعية الجزائرية كانت توفد بعثات في رمضان وفي الصيف من كل عام إلى المناطق المختلفة لتقوم بالوعظ والإرشاد وإنشاء الشعب الجديدة. وكانت العضوية على مراتب: العضو المشارك، والعضو المؤيِّد، والعضو المناصر، والعضو العامل.. وغير ذلك من الفروع التي ربما كانت مقتبسة

من أنظمة الجمعيات الغربية ولعل لها جذوراً من تراث الدعوة الإسلامية.

أما التعليم فكلتا الجماعتين اهتمتا به اهتماماً كبيراً. ففي الجزائر حُرمت الغالبية من أبناء الشعب الجزائري من فرصة التعليم أياً كان هذا التعليم عربياً إسلامياً أو فرنسياً. أما في مصر فإن فرص التعليم كانت أفضل، ولكن الاحتلال البريطاني سيطر على وزارة المعارف فوضع المناهج والمقررات وهذا من آثار دنلوب Dunlop المعروف، فكان لجماعة الإخوان أهداف تعليمية لتكمل لدى أعضائها ما فاتهم من المعرفة الصحيحة بالإسلام. بل إن الجمعية سعت إلى إنشاء مدارس ابتدائية وهي قد فعلت ذلك بالفعل.

أما عمل رئيسي الجماعتين في السياسة فكل منهما امتلك مؤهِّلات القيادة والزعامة لا لتكون هذه الزعامة على مستوى جمعية محدودة ولكن ليكون زعيماً على مستوى البلاد وربما العالم الإسلامي. فشارك ابن باديس في الأحداث السياسية في بلاده عن طريق الانتخابات للمجالس المحلية التي كانت قبلاً لا يرشح لها إلّا من ترضى عنه فرنسا، ولا يهتم بمصالح مواطنيه بقدر اهتمامه بإرضاء رؤسائه الفرنسيين، وهؤلاء أُطلق عليهم «بني وي ـ وي»، فأصبح رجال الجمعية وزملاء ابن باديس يرشحون ويساهمون في إنجاح مرشح ضد آخر. وبلغت ذروة نشاطه السياسي ـ بالمعنى الاحترافي ـ أنه دعا إلى مؤتمر

جزائري عام سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) ليقول الشعب الجزائري كلمته في السياسة الفرنسية الرامية إلى إدماجه وفرنسته. وكانت الزعامة غير الرسمية في هذا المؤتمر لابن باديس.

وكان للشيخ حسن البنا نشاطه السياسي وصل إلى عزمه ترشيح نفسه لعضوية مجلس الأمة (البرلمان) ولكنه طُلب إليه من قبل السلطات أن يسحب ترشيحه.

رحم الله الشيخين وأجزل لهما المثوبة.



الفصل الخامس
ابن باديس في نظر معاصريه

لعل من المفيد أن ننقل مقتطفات مما قاله بعض المعاصرين المهتمين بدراسة الشيخ ابن باديس رحمه الله. فقد كتب عنه مفكرون ومؤرخون وعلماء اجتماع وسياسيون وسوف نختار من يمثل كل فريق من هؤلاء:

في نظر المفكرين:

فمن المفكرين الدكتور محمود قاسم الذي عمل فترة في الجزائر يدرِّس في جامعاتها، فأتيحت له الفرصة أن يتعرف على بيئة ابن باديس وعلى زملائه ويفيد من المراجع المتوفرة هناك. فأصدر كتابه «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» بعد استعادة الجزائر استقلالها بسنوات قليلة أي عام ١٩٦٧ م. وفي الفصل الأول ترجمة موجزة لابن باديس تناول فيها حياته وتعليمه، واشتغاله بالتعليم والصحافة، ثم تأسيسه «لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين». وتحدّث في فصل تالٍ عن أهم السمات الأساسية في شخصية ابن باديس.

وخصّص فصلاً للحديث عن «الأسلس الفلسفي الذي بنى عليه ابن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح المفاهيم الروحية»[١]. وأجرى مقارنات طريفة وممتعة ومفيدة بين ابن باديس وابن رشد وغيره من الفلاسفة المسلمين.

وإنّي كلما رجعت إلى كتاب الدكتور محمود قاسم توقفت عند تصويره لجهاد ابن باديس هذه الصورة الجميلة؛ ولعله لم يسبقه أحد إليها حيث يقول: (وقد استطاع بصادق فطرته وإخلاصه أن يهتدي إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين، وقد نجحت في أن تجر إليها نفراً من السياسيين المحترفين).

(ولقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان. فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى)[٢].

أما حين يَتحدث عنه بين الفلاسفة فإنه لا يريد أن يجعل منه فيلسوفاً، بل إنه يرى أن ابن باديس لم يكن ممن يفكر في إنشاء

---

(١) محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية: ص ١٤.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٥.

مذهب أو فكر فلسفي إنما كان رجل عمل وحركة. ولكن العمل والحركة تستند إلى أسس فكرية، فتحدث محمود قاسم عن نظرة ابن باديس إلى أهمية القرآن في بعث الجزائريين والأمة الإسلامية جمعاء، ثم يعرج على نظرته للأخلاق. ويوضح موقف ابن باديس من إصلاح النفس والمجتمع ثم تحدث عن ربط ابن باديس العلم بالدين وأن الأمة متى فقدت سبيلها إلى العلم ضلّت وتأخرت وأصبحت في ذيل الأمم. ثم تناول موقفه من التصوف والطرق الصوفية وما أدخلته على الدين الإسلامي من بدع وخرافات وتواكل وتنازل عن القيم الإنسانية الرفيعة التي دعا إليها الإسلام[١].

ومالك بن نبي رحمه الله من مفكري الجزائر الذين هزتهم حركة ابن باديس فكتب عنها الشيء الكثير. ولعل في مقدمة ما كتب قوله في كتابه «شروط النهضة»: (ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس) فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري يتحرك ويا لها من يقظة مباركة). ويقول في الكتاب نفسه مقارناً بين عمل العلماء ورجال السياسة المحترفين: (إن العلماء كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين، حين دعوا إلى الإصلاح بمعنى دفع النفس إلى حظيرة الإيمان من جديد)[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ص ٨٣ ـ ٩٣.
(٢) مالك بن بني، شروط النهضة: ص ٧٩.

والحقيقة أن مالك بن نبي كان له رأي فريد في نقد جمعية العلماء التي كان ابن باديس رئيسها منذ نشأتها حتى وفاته، ولم يوجه مالك رحمه الله نقده إلى الجمعية في حياة رئيسها أو إلى رئيسها بالذات. ولعل ذلك لأن ابن باديس قد أضحى رمزاً في فكر الشعب الجزائري، فمن غير المقبول توجيه النقد إليه. ولكنه انتقد العلماء تحت قيادة ابن باديس. وربما لم يظهر له وجه الخطأ في عمل العلماء إلا بعد وفاة ابن باديس. أما ما جاء في نقده فقوله: (ولكن العلماء ـ لسوء الحظ ـ قد انحرفوا هم أنفسهم عن الطريق القويم متبعين رجال السياسة. ولقد كان الوقت مناسباً لكي يعودوا إلى الطريق القويم، واثقين من أنه لا نجاة بغيره. ولقد كان عليهم أن يستأنفوا جهدهم الذي بدأوه ثم قطعوه عام ١٩٣٦)[١].

وكان مالك بن نبي يرى أنه ما كان ينبغي للحركة الإسلامية أن تترك مهمتها في إعداد (الجيل القادم لحمل الحضارة وتدخل مجال السياسة والتنازل عن القيادة للسياسيين بعد أن كانت في يدهم)[٢].

ولنا أن نتساءل هل أخطأ ابن باديس حقاً حين دعا للمؤتمر الإسلامي الجزائري العام فيحضره الأندماجيون، والمتفرنسون، والشيوعيون، والعلماء المصلحون. وبفضل من الله ثم جهودٍ

---

(١) المرجع السابق: ص ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن ـ الطالب: ص ٢٥٥.

بذلها العلماء خرج هذا المؤتمر بمطالب حاسمة في تاريخ الجزائر وهي المحافظة على إسلام الجزائر وعروبتها. لعل الخطأ لم يكن ناتجاً عن دخول العلماء معترك السياسة ـ كما رأى مالك بن نبي ـ ليوقظوا وليبثوا الوعي بين أفراد الأمة الجزائرية بكيانها ومقوماتها، وينذروا فرنسا بأن في الجزائر شعباً لن يترك دينه ولغته مهما طال عليه أمد الاحتلال، ومهما بذلت من جهد في محو هذه العقيدة. بل ربما كان الخطأ في التنازل عن القيادة السياسية، أو أن القيادة السياسية التي رشحها العلماء لم تكن عند مستوى الأحداث.

لقد عجبت من أن آراء مالك بن نبي لم تجد من ينتقدها في حين أن بعض الذين شاركوا في ذلك المؤتمر كانوا لا يزالون على قيد الحياة حينما نشر ابن نبي آراءه. وقد يكون نشره لهذه الآراء خلال الثورة أو بعدها بقليل لم يحقق لها الذيوع والانتشار، أو أن سمعة مالك بن نبي العلمية والفكرية جعلت الاقتراب منه بالنقد أمراً صعباً حيث أصبح هو الآخر من الرموز التي جمعت حولها المعجَبين. لقد اختلف ابن نبي مع العلماء وترك العمل معهم، فهل فشلوا في فهمه أو فشل هو في إفهامهم وفهمهم[1]؟.

(١) فصلنا القول في هذه المسألة بعض التفصيل في كتابنا «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية» ـ الفصل الثالث ـ المؤتمر الإسلامي الجزائري العام.

ومن المفكرين الذين كتبوا عن شمال أفريقيا وخص الجزائر بحديث طويل وكان من أوائل من اهتم بهذه المنطقة حيث صدر كتابه عام ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م - أي بعد استعادة الجزائر استقلالها بثلاث سنوات -: الأستاذ أنور الجندي فكتب يصف ابن باديس قائلاً: (فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح، ويسيطر على الجموع، وهو الكاتب الدقيق العبارة، النقي الأسلوب، الواضح الفكرة، وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة).

(وهو الذي ينشىء المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهيرة، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء. وإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته «الشهاب» يكتب ويحرر ويراسل «البصائر» ويجيب على الرسائل فيقضي موهناً من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول).

(لم تصرفه الصحافة عن التدريس وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم أو كشوف العلم والفكر إلا استوعبها، وأبدى رأيه فيها. وما من صحيفة في المشرق أو المغرب إلاّ نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات سياسة الغرب في الشرق، وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ومن زاوية أمر العرب والمسلمين، ذلك

إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة، ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أم باللغة العربية أو بتفوق العنصر الأوروبي على العنصر العربي الإسلامي)[1].

في نظر المؤرخين:

أما المؤرخون فإنني أبدأ بأستاذي الدكتور أبو القاسم سعد الله ابن المعهد الباديسي بقسنطينة، ودار العلوم بالقاهرة، ورائد مؤرخي الحركة الوطنية الجزائرية، ورئيس مجلس البحث العلمي بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر حالياً. وليست تربية الدكتور سعد الله الباديسية مما يجعله يتحيّز لجمعية العلماء أو لابن باديس، بل هو يأتي أحياناً بالآراء الفريدة ما يُعَدّ غريباً أن يصدر من مثله لولا حرصه على توخّي الحيدة والعدل والإنصاف في أحكامه. فماذا يقول د. سعد الله عن ابن باديس؟

يقول د. سعد الله: (إن العشرينات من هذا القرن هي الفترة التي ظهرت ونمت فيها الصحافة الإصلاحية، والنوادي، والمدارس الحرة. وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه)[2].

وحين يتحدث عن جمعية العلماء يقول: (وإذا تكلمنا عن

---

(١) أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا: ص ٤٦.

(٢) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية: ج ٣ (١٩٣٠ ـ ١٩٤٥ م): ص ٨٢.

جمعية العلماء خلال الثلاثينات فالكلام في الواقع عن ابن باديس. ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً إنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس)[١].

ويناقش الدكتور سعد الله مسألة مشاركة العلماء في السياسة فيؤيّد تدخلهم في الشؤون السياسية ـ وكأنه يرد على مالك بن نبي وإن لم يقصد ذلك ـ ومما يذكره الدكتور سعد الله أن العلماء في الجزائر كان عليهم أن يهتموا بالسياسة ذلك أن سبب عدم تدخل العلماء، في الدول المستعمرة الأخرى كتونس ومصر والمغرب، في السياسة هو أن (مصر كانت تتمتع تحت الاستعمار بكيان سياسي محلي، وكذلك تونس تحت الاستعمار الفرنسي، بينما الحال لم تكن كذلك في الجزائر. ففرنسا كانت تحكم الجزائر حكماً مباشراً وهي لا تحكم باسم الدين الإسلامي. ولذلك جردت الدين من محتوى الدولة وصيّرته تعبدياً فقط)[٢]. ولعل هذا لا يخلي العلماء من مسؤولياتهم في الدول الأخرى.

ويغطّي الدكتور سعد الله معظم نشاط ابن باديس الوطني خلال فترة رئاسته لجمعية العلماء. ولعل قمة ما كتبه الدكتور سعد الله حول ابن باديس وجمعية العلماء تحت رئاسته ـ في نظر

(١ و ٢) المرجع نفسه: ص ٨٣ وص ٨٦.

بعض العلماء الجزائريين المعاصرين[1] ـ المقدمة الرائعة لرسالة الماجستير التي قدمتها لجامعة الملك عبد العزيز بعنوان «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية ١٣٤٩ ـ ١٣٥٨ هـ = ١٩٣١ ـ ١٩٣٩ م»، وجاء فيها: (وحسبنا هنا أن ننبّه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها. خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين ووفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والكتب..)[2]، ولئن كان حديثاً عن الجمعية فإن ابن باديس كان هو العصب المحرك وينطبق الحديث عليه تماماً.

أما المؤرخ الآخر الذي نودّ أن نعرض لموقفه من الشيخ عبد الحميد بن باديس فهو المؤرخ الكندي «أندريه ديرلك» Andre Dirlik في رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان «عبد الحميد بن باديس مفكّر الإصلاح وقائد الحركة الوطنية الجزائرية». ولقد بذل المؤلف في رسالته هذه جهداً كبيراً ولعلها من أولى الرسائل الجامعية في العالم الغربي تتناول حياة ابن

---

(١) الأستاذ عبد الرحمٰن شيبان ـ وزير الشؤون الدينية السابق ـ وغيره.

(٢) أبو القاسم سعد الله، تقديم لكتاب مازن بن صلاح مُطَبَّقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، ط دار القلم ـ دمشق.

باديس بهذا الوضوح والقوة. فقد أُنجزت عام ١٩٧١ م أي بعد استعادة الاستقلال بسنوات قلائل، ولما تكن الوثائق الفرنسية قد كُشف النقاب عنها. ولكن معرفة الباحث للغة العربية واللغة الفرنسية وزيارته لكل من الجزائر وتونس لمقابلة بعض العلماء مكّنته من التوصل إلى تصور دقيق لنشاط ابن باديس.

لقد درس المؤلف نشاط ابن باديس بوصفه داعية وربطه بكبار الدعاة في التاريخ الإسلامي منذ ابن تيمية إلى العصر الحاضر. ووقف على فكر ابن باديس في بعض المسائل التي حاول بعض المؤرخين المسلمين طمسها وتشويهها مثل مسائل الاقتصاد والعمل. وفيما يلي بعضاً من أقوال هذا المؤرخ:

(لقد أخذ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكّر الذي ينظِّر لمجتمعه نظاماً فكرياً بل ليكون الحركيّ الذي تحرك طاقاته الواسعة جماهير شعبه من حالة الكسل التقليدية التي كانوا عليها)[١].

ويتحدث عن نتائج أعمال ابن باديس فيقول: (لقد كانت نتائج جهود ابن باديس أن احتفظت الجزائر بشخصيتها الإسلامية العربية في حين كانت أهداف فرنسا الصريحة بأن تحطم هذه الشخصية ولكن الجزائريون استطاعوا تجنب ذلك وتفاديه)[٢].

---

(١) Dirlik, Abd al Hamid Ben Bàdis Op., cit, p 162.

(٢) Ibid., p. 20

ويأتي حديث ديرلك Dirlik حول اتساع نطاق عمل ابن باديس ليشمل جميع مجالات الحياة والفكر ليرد على أولئك الذين يريدون قصر مجال العلماء المسلمين على العبادات؟ فيقول ديرلك: (إن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشؤون السياسية ولمس تفكيره الأمور الاجتماعية والثقافية. لقد عبر عن آرائه حول مسألة الحضارة للجزائريين وللبشرية أجمع. لقد أظهر اهتمامه لمبادىء الأخلاق في المجتمعات. وإن الذي دفعه لإبداء آرائه حول هذه الموضوعات المختلفة هي نظرته للعالم. إن فكر ابن باديس متساوق مع الوضع الذي تبناه لأهمية الإسلام للإنسانية. إنه مما يهم الطالب الجزائري أن يعرف المشاركة التي لا شك في أن ابن باديس قدمها لتغيير المجتمع الجزائري)[1].

ولقد تعرضت جمعية العلماء ـ وبالتالي رئيسها ـ لنقد مجحف بأنها (كانت أسيرة العقائد الكلاسيكية بأنهم لم يحاولوا الخوض في المسائل المادية أو المسائل الاقتصادية كالعمل ورأس المال)[2]. وبحثت عما أردّ به على هذا الانتقاد فوجدت أن الباحث الكندي قد تعرض لهذه المسألة وأوفاها حقها من البحث فقال: (إن ظهور التمايز الطبقي في الجزائر كان نتيجة تحطيم

---

(١) Ibid., p. 203-204

(٢) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر: ص ٢٢٣.

المجتمع الجزائري الإسلامي بسبب الاستعمار الفرنسي. فوجود الهـوة الطبقية عكست نجاح الجهود الأوروبية في السيطرة على الاقتصاد. إن التمايز الطبقي دلّ على أن الأفكار الاشتراكية وجدت أرضية مشجعة بين الجزائريين.. لقد نادى ابن باديس بالمبدأ الإسلامي بعدم استبعاد حق الملكية كمقولة أساسية مقابل الفكر الاشتراكي والشيوعي الذي يشجع الصراع الطبقي في الجزائر..). ويضيف: (إن عدم المساواة التي ارتكبت في المجتمع الجزائري تعبِّر عن مدى ابتعاد الجزائريين عن العقيدة الإسلامية ذلك أن إصلاح المجتمع وفقاً للشريعة الإسـلامية سيؤدي بالتأكيد إلى معالجة التقسيم الطبقي في الجزائر)[١]. ويشير المؤلف في هامش هذه الصفحات إلى الوسائل التي نادى بها ابن باديس لإصلاح الوضع الاقتصادي وذكر منها أولاً احترام مؤسسة الزكاة التي تؤدي إلى عدم تضخم الثروة بيد الأغنياء إذا ما تم توزيعها وفقاً لما جاء في الآية ﴿ إنّما الصدقاتُ للفقراء والمسـاكين والعاملين عليهـا والمؤلّفـةِ قلوبُهم وفي الـرقـاب والغارمين وابن السبيل وفي سبيل الله فريضةً من الله والله عليمٌ حكيم ﴾. أما الأخطاء التي يرتكبها المجتمع المسلم وتؤدي إلى اختلال النظام الاقتصادي فهي الربا والقمار واستغلال العمال وعدم أداء الزكاة[٢].

(١) Ibid., p. 261

(٢) Ibid., p. 262

ويرى الباحث الكندي أن الحركة الإصلاحية هي التي وضعت قواعد الأمة للشعب الجزائري. فقد كان ابن باديس مقتنعاً بالشخصية الجزائرية المستقلة فعمل جاهداً لإنضاج هذه الفكرة. ويرى الباحث أن نتيجة هذا العمل وإخلاص ابن باديس لهذه الفكرة أدى إلى ولادة الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ م[١].

ومما يؤخذ على الباحثين الغربيين بصفة عامة تفريقهم بين القومية الوطنية والقومية الدينية، وأن الإسلام ليس فيه قومية ترتبط بتراب فإنما المسلمون أمة واحدة. وقد كانت نظرة ابن باديس خدمة الجزائر أولاً لأنها البلد الذي وُلد فيها وترعرع وواجبه أولاً إنقاذها وإن في إنقاذها عملاً مباركاً للأمة الإسلامية.

ويرى «ديرلك» أن أهداف فرنسا في الجزائر تجاوزت الاستغلال الاستعماري إلى محاولة إدماج الجزائريين في «حضارة وثقافة غريبتين عنهم». وهنا يتجلى موقف ابن باديس القوي في تحدِّي هذا (الحلم الفرنسي باقتراح وتطوير ووضع بذور الدعوة إلى الحضارة الجزائرية، والثقافة الجزائرية)[٢]. وقد كان الأَوْلى به أن يقول الدعوة إلى الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية.

ومن المؤرخين الذين درسوا دعوة الشيخ عبد الحميد بن

---

(١) Ibid., p. 275

(٢) Ibid., p. 16

باديس الدكتور محمد فتحي عثمان في بحث ضافٍ مقارناً بين الشيخ عبد الحميد بن باديس والدعاة المعاصرين في المشرق العربي فذكر أولاً اهتمامهم بالقرآن الكريم. فكما قام الشيخ محمد عبده بإلقاء دروس في تفسير القرآن الكريم داعياً إلى العودة إلى العقيدة السليمة من كل «فساد ودخيل»، وكذلك فعل الشيخ حسن البنا رحمه الله (ت ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م) فقد كان له درس أسبوعي في التفسير بل إنه جعل (محور دروسه ومحاضراته هو القرآن الكريم وتوجيهاته المباشرة التي تخاطب العقول والقلوب على جميع المستويات الأفراد والجماعات دون تكلف أو اعتساف)، ويمضي الكاتب متحدثاً عن ابن باديس ودعوته حتى يصل إلى أثره في الجماهير فيقول: (أما ابن باديس فكان بحق رجل (الجماهير) الصابر عليها، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها. وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة إلى جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديهته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه)[١].

في نظر الفرنسيين:

وإن الحديث عن ابن باديس في نظر معاصريه لا بد أن

---

(١) محمد فتحي عثمان، دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في المشرق العربي، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الرابع ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م: ص ٤٣٢ ـ ٥٠١.

يتضمن ما قاله عنه الكتاب الفرنسيون ذلك أن جهاده كان موجّهاً ضد سياسة بلادهم الاستيطانية، وضد محاولاتهم محو الشخصية الجزائرية. فتحت عنوان «علماء الإصلاح الجزائريين» كتبت إحدى المجلات العلمية الفرنسية تقول: (إن من الأشياء المدهشة أن تنجب عائلة ابن باديس المحافظة والموالية لفرنسا واحداً من الرجال الذين سيوجّهون أقسى الضربات للفكر الفرنسي، وللمؤسسات الفرنسية الثابتة)[1]. ويشير المقال إلى أن ابن باديس لم يدرس في المشرق مطلقاً كما قيل عنه ولكنه تأثر بعمق حينما كان في الجامعة الزيتونية بالحركات الإسلامية في المشرق ولا سيما المصرية منها. ويضيف المقال بأن زعامة ابن باديس للحركة الإصلاحية في الجزائر كانت بسبب مواهب ابن باديس وأنه كان ذا إيمان شديد وكلمات مؤثرة، ومن الطبيعي أن يصبح رئيساً للجمعية التي نشأت بدعم مالي من تاجر قبيلي (نسبة إلى القبائل - البربر) وهو عمر إسماعيل حيث قدم لهذه الجمعية المبنى ذا الحجرات الواسعة (نادي الترقي) ليكون مركزاً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١ م[2].

جميل أن يدرك الأعداء قوة ابن باديس وعظيم تأثيره في زملائه العلماء. ولا ينكر العلماء دعم التاجر عمر إسماعيل المادي للجمعية في السنة الأولى لتأسيسها. لكن هذا الدعم لم

---

(١) Richement, F. De. Les Ulemu Ageriens Reformists. La Nouvelle Revue Francaise D'otre Mer No 7-8 année July - August 1955.

(٢) Ibid. loc. cit.

يستمر طويلاً. فلما تأكدت الوجهة السلفية الإصلاحية لجمعية العلماء خرج منها عمر إسماعيل وغيره ليؤسّسوا «جمعية علماء السنة» المناهضة للإصلاح، وتستمر جمعية العلماء في طريقها المرسوم[1].

وقد حرصت الإدارة الاستعمارية في الجزائر على مراقبة جمعية العلماء ولا سيما رئيسها الشيخ عبد الحميد. فقد كان يحضر الاجتماعات العمومية مندوب عن السلطات الفرنسية، أو لعل أحد الحضور ممن كان ينتسب ظاهراً إلى العلماء كان ينقل تفاصيل اجتماعات الجمعية. فبالإضافة إلى التقارير السنوية التي كانت تعدها مراكز الإعلام والدراسات في الولايات الجزائرية الثلاث كانت هناك تقارير مستمرة عن تحركات ابن باديس ننقل هنا بعض فقراتها الخاصة بابن باديس:

أولاً: التقرير السنوي عن الأهالي عام ١٩٣٦ م[2].

خطا العلماء خلال سنة ١٩٣٦ م خطوات كبيرة على الساحة السياسية وفقاً لمبادئهم الداعية إلى التعريب والإسلام، والتحدث الدائم عن الشعب الجزائري المسلم، وعن الأمة العربية وعن «الوطن الجزائري المسلم». فقد سبق لابن باديس أن أوضح هذه النقاط في مجلة «الشهاب» حينما أكد أن هذه الأمة

---

(١) مازن بن صلاح مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ص ١٤٠.
(٢) L'année des Indigences Algeriennes. 1936. Jan. 1937 AGG 11H47.

الجزائرية التي لها تاريخها ووحدتها وثقافتها وعاداتها، وبالتالي فهي ليست فرنسا ولن تكون فرنسية.

ثانياً: الاجتماع العمومي لجمعية العلماء في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٦ م[١].

قارن ابن باديس بين عمل الجمعية وعمل الطبيب الذي وُكّل إليه معالجة رجل مريض جداً ليأخذ بيده إلى الصحة. والجمعية سوف تقوم بمثل هذا العمل لصالح الشعب الجزائري المسلم موضحاً مدى حاجة المسلمين إلى الاتحاد، وأن الإسلام يأمر أتباعه بأنْ يهتمّوا بالبشرية جمعاء دون النظر إلى دين أو جنس.

ثالثاً: التقرير السنوي عن الأهالي الجزائريين عام ١٩٣٧ «حسب رؤية ولاية الجزائر»[٢].

تحدث هذا التقرير عن أعمال ابن باديس وأقواله خلال هذا العام مشيراً إلى أن ابن باديس قد كثف جهوده هذا العام نحو العروبة والإسلام، وأن من أقواله تصوير الجمعية بمدينة ذات أسوار شامخة أُسست على قواعد الإسلام وروح العروبة. كذلك نوّه التقرير بحديث أجراه مندوب مجلة «الرابطة العربية» قال فيه ابن باديس: (تحية لكم يا أبناء العقيدة الإسلامية. إن نهضتنا

---

(١) Sûrete Dept. Rapport No 5861. Assemble de L'Assoc. des Jlema Refom-ist. 29 Sept. 1936 Agg 9H46.

(٢) L'Année Indigenes Algeriennes 1937 Vue de Dept. D'alger 1937 AGG 10 H88[19].

ترتكز على السلام ولكننا سنحارب من يحاربنا، وسوف نتصدى للخونة).

كما أشار التقرير إلى الفتوى التي أصدرها ابن باديس حول التجنس متعرضاً فيها إلى قضايا مختلفة تتعلق بهذا الأمر. وهنا يقول التقرير: (هذا التصرف من الشيخ ابن باديس لم يكن ليفاجىء أحداً وبخاصة إذا علمنا خلفيته الشرقية وعلاقته مع العالم العربي. يؤيد ذلك سفره إلى تونس مرتين خلال العام الماضي: الأولى في شهر مايو، والثانية في شهر يوليه، وجاء تصريحه حول التجنس بالتوافق مع الشيخ الثعالبي. كما أشاد في زيارته الأخيرة بوحدة الشمال الأفريقي).

رابعاً: مقال لجريدة لاديباش كونستنتين La Dêpach Constantaine[1].

تعرض الشيخ عبد الحميد بن باديس لمحاولة اغتيال غادرة على يد أحد أتباع الطريقة العليوية، فكتبت الجريدة المنوّه عنها أعلاه تقول: (السيد ابن باديس رجل متنوّر، متضلّع في العلوم الإسلامية، مسلم عامل بنص القرآن، تتبع أطوار تلك الدعوة (العليوية) وقابل بالغضب والنكير أعمال ابن عليوة المنافية للأخلاق، وأقدم على إظهار مساوئه لإخوانه في الدين).

---

(١) الشهاب: العدد ١١٠ في ١٩ صفر ١٣٤٦ هـ = ١٨ أغسطس ١٩٢٧ م، نقلاً عن La Dêpache Constantaine 30 July 1927.

وما دمنا في حديث الفرنسيين عن ابن باديس فالمفكر الفرنسي الذي أسلم حديثاً رجاء جارودي كتب مقالاً بعنوان «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم»، جاء فيه: (وقد تحدد موقفهما [ابن باديس والإبراهيمي] برفضهما للأفكار التي دعا إليها في تركيا ضياء جوكلاب وطبّقها من بعده ببضع سنوات كمال أتاتورك الذي اختلط عليه الأمران العصرنة «Modernisation» والغربنة «Occidentalisation». وبذلك أفقد الإسلام جانبه الروحي بتقليد الغرب تقليداً أعمى). ويقول في مكان آخر من مقاله: (إن ابن باديس والإبراهيمي ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية «المرابطية» فتلك العقلية بما فيها من خرافات وشعاعات تتنافى مع روح الإسلام)[1].

في نظر زملائه وتلاميذه:

لقد حظيتُ بزيارة الجزائر خمس مرات لأجمع المادة العلمية لبحثي حول جمعية العلماء، وهناك قابلت العديد من الشخصيات الجزائرية، كان بعضهم زميلاً لابن باديس بينما كان الآخر من تلاميذه، وسألتهم عن الجمعية، وفيما يلي الإجابات التي تلقيتها:

---

(١) روجي (رجاء) جارودي «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم»، الثقافة: م١٣، ع٧٦، رمضان/ شوال ١٤٠٣ هـ = يوليه/ أغسطس ١٩٨٣ م.

كان من أبرز من قابلت الشيخ محمد خير الدين الذي عمل مع الشيخ عبد الحميد قبل تأسيس الجمعية وأصبح عضواً في مجلسها الإداري الأول وظل يعمل في الدعوة الإسلامية حتى يومنا هذا. فتحدث معي عن قضايا كثيرة حتى إنه أعطاني صفحات من مذكراته المخطوطة، وقد صدرت مؤخراً في كتاب. ومما قاله في لقائي معه: (كانت حياة ابن باديس كلها جهاد. لم يعش لنفسه أبداً ولم يعش لأحد بل عاش لله. كذلك لم يترك وقتاً قصيراً ليقضيه في مسائل دنيوية أو مظاهر أو وظيف أو طمع، إنما صرف وقته للعلم والتكوين. فالجزائر مدينة للشيخ عبد الحميد بن باديس في ميدان التربية والتعليم حيث لم يكن هناك تربية أو تعليم إلا به. والوطنية قبل أن يسمع بها الناس لم يسمعوا بها إلّا منه)[1].

وسألته عن رأيه في الانتقادات الموجهة من مالك بن نبي للجمعية ورجالها، فقال: (كل العقلاء لا يثقون بكلام مالك بن نبي هذا، فهو كثير الاتهام للناس، وإذا لقي أحداً لا بد أن ينتقده. وهو في أفكاره انفرادي وانعزالي وكلامه ليس بحجة)[2]. وقد يرفض بعض القراء مثل هذا الرأي فشهرة مالك بن نبي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث تجعله غير قابل للنقد في نظر الكثير. ولكن الشيخ خير الدين عاشر بن نبي

(١ و ٢) محمد خير الدين، مقابلة شخصية معه في الجزائر في ١٩ صفر ١٤٠٤ هـ = ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ م.

وعرفه وعرف آراءه فله الحق في أن يرد بالأسلوب الذي يروقه. ولنا أن نقبل أو نرفض.

ومن زملاء الشيخ ابن باديس الشيخ حمزة بوكوشة (شنوف) فقد تحدث كثيراً عن ابن باديس ورغم حرصي أن أفهم كل ما يقول فإن لهجته وبحة في صوته جعلت الأمر صعباً ولكني التقطت المعلومات التالية: (كان ابن باديس رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته وليس عنده كِبْر، ولا يشعر بأي غضاضة أن يسأل أحد تلامذته عن مسألة، ويرجع إلى الحق). وتحدث عن برنامجه اليومي وعن أسرته، وإن كنا قد اقتبسنا من كلامه فيما مضى ولكنه عبّر بجملة واحدة عن أشياء تحتاج صفحات لشرحها فقال: (إن التضحية التي ضحاها ابن باديس مهمة جداً فقد كوّن جيلاً من الأجيال)[1].

ومن أبرز زملاء الشيخ ابن باديس زميله ورفيق دربه الشيخ البشير الإبراهيمي الذي تولى رئاسة الجمعية بعد وفاته. وكثيرة هي العبارات التي قالها الإبراهيمي ولعل ما يلي يمثل رأيه في الشيخ ابن باديس: (وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، وديناً لابسته المحدثات والبدع، ولساناً أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخاً غطّى عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السوء وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة

---

(١) حمزة بوكوشة، مقابلة شخصية معه، مرجع سابق.

العلمية.. وأن آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون، وأن بناءه في الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار)[1].

ولا بد أن يقال في مثل عالمنا الشعر، وقد حبا الله الجزائر بشعراء وأدباء، وكثير هو الشعر الذي قيل في ابن باديس، ولكننا نكتفي بأبيات قيلت في حفل تكريم ابن باديس بمناسبة ختمه لتفسير القرآن الكريم وهي للشاعر محمد العيد آل خليفة[2]، وقد كتبت بعض أبياتها وزُيِّنت بها مجالس البيوت والمتاجر منها هذه الأبيات:

بمثلكَ تعتز البلاد وتفخر
وتزهر بالعلم المنير وتزخَرُ
طبعتَ على العلمِ النفوسَ نواشِئاً
بمخبرِ صِدْقٍ لا يدانيه مَخْبَرُ

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر: ص ٦٣٢ - ٦٣٣.

(٢) محمد العيد آل خليفة: ولد محمد العيد في مدينة العين البيضاء يوم ٢٧/ جمادى الأولى ١٣٢٣ هـ = ٢٨ أغسطس ١٩٠٤ م. حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وتلقى العلوم الدينية في مدينته ثم انتقل إلى بسكرة لمواصلة تعليمه وبعد ذلك انتقل إلى تونس للدراسة. مارس التدريس في مدرسة الشبيبة الإسلامية في العاصمة الجزائر. ارتبط بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان لسان الإصلاح المفوّه. عن كتاب د. سعد الله: «شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة».

نهجتَ لهـا في العِلمِ نهجَ بـلاغـةٍ
ونـهـج مـفـاداهُ كـأنّـكَ حَـيْـدَرُ
حبَتْـكَ عمـالاتُ الجـزائـرِ حُـرْمَـةً
مُـشَـرَّفَـةً عُـظْمى بـهـا أَنْتَ أَجْـدرُ
فـفي كُـلِّ وفْـدٍ راشـدٍ لـك دعـوةٌ
وفي كـل حفـل حـاشـد لـك مِنْبَـرُ
يَراعُكَ في التحـرير أمْضَى من الظُّبى
وأمْـضى مـن الأحكـام أيّـان يُـشهَـرُ
ودرسُـك في التفسيـر أشهى من الجنى
وأبهى من الـروضِ النـضيـر وأبـهـرُ
خـتـمـتَ كـتـابَ اللهِ خَـتْـمَـةَ دارسٍ
بَصيـرٍ لـه حَـلُّ العَـويصِ مُيَسّـرُ[1]

أما تلاميذ الشيخ عبد الحميد فهم كثر؛ وقد قابلت منهم الشيخ محمد الصالح رمضان ـ وهو فيما أعلم قد ساعد كثيراً من الباحثين جزائريين وغير جزائريين في بحوثهم عن الجزائر ـ وكان مما سألته عنه سؤالاً عن قوة ابن باديس الروحانية، وذكرت له الحديث القدسي الشريف: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه.. ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده

(١) مجالس التذكير: ص ٤٦٤.

التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأُعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنه». وطلبت من الشيخ أن يروي لي شيئاً من خصوصيات الشيخ، ولكنه ما فهم سؤالي أو لم يرد الإجابة، ولكنه قال لي: (كنا نتمثل في الشيخ عبد الحميد أحد الحواريين أو أحد الصحابة، فما رأينا رجلاً يتمثل فيه الإسلام ويتجسد كاملاً نقياً بأجلّ معانيه مثلما رأينا هذا في الشيخ ابن باديس. يكاد يجمع الناس كلهم الأعداء وغير الأعداء مسلمين وغير مسلمين ـ والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شراً عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم ـ كلهم يجمعون على صدقه وتقواه. وحتى الفرنسيون يؤمنون بهذا ويرون أنه أقوى شخصية في الجزائر)[1].

ومن تلاميذ الشيخ أيضاً الأستاذ عبد الرحمٰن شيبان فقد قابلته حين كان وزيراً للشؤون الدينية مرتين في مكتبه وكنت قد أعددت له سؤالاً عرفت فيما بعد أنه كان محرجاً أو غير مناسب، وهو: ثبت عن الشيخ عبد الحميد رحمه الله أنه كان ينوي إعلان الثورة فيما لو أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، وتوفاه الله تعالى قبل ذلك. فلماذا لم ينفذ ذلك العلماء فيما بعد ويتولوا قيادة المعركة بدل تركها في يد من تُركت في أيديهم؟ فأجاب: (ليس كل الناس ابن باديس فالعلماء لم يقوموا بالثورة لأن ذلك ليس من طبيعة الأشياء فهم مربون ومعلمون لإعداد الناس أما ابن باديس

(١) محمد الصالح رمضان، مقابلة شخصية معه، مرجع سابق.

فهو زعيم وقائد وجندي ومربي)[1]. ثم ذكر لي قصة تؤكد تفكير ابن باديس في الثورة ذكرناها في فصل سابق.

ولقد عُرف الشيخ ابن باديس خارج الجزائر وفي مصر بالذات وبالرغم من كثرة العلماء فيها وشهرتهم إلا أن أحد الطلاب الجزائريين كان يتلقى العلم في الأزهر الشريف بعث رسالة إلى جريدة «البصائر» يقول فيها: (ومن السارّ المطرب أنني أينما ذهبت وذكرت اسم الشيخ ابن باديس كانت الثغور تبتسم والوجوه تنشرح والآذان تصغي. وهكذا سهل علي اسم الأستاذ الرئيس كل صعب ووصلت مصر بفضل انتسابي إلى جمعية العلماء ذات السمعة العالية في الشرق العربي الإسلامي)[2].

ومن معاصري الشيخ عبد الحميد بن باديس الذين لم يكونوا يرون في الشيخ عبد الحميد إلا عدواً لاختلاف في الفكر والتوجه، من هؤلاء عمار أوزغان من أوائل الجزائريين انتساباً للحزب الشيوعي بل كان من الذين تسلموا قيادة هذا الحزب في الجزائر، ولكن الله منَّ عليه بالهداية فترك الحزب الشيوعي وكان من إنتاجه كتاب «الجهاد الأفضل» الذي قال فيه عن ابن باديس: (كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ أدام الله ذكره ـ أول رئيس

---

(١) عبد الرحمٰن شيبان، مقابلة شخصية، مرجع سابق.

(٢) رسالة من أبي مدين الشافعي، البصائر: العدد ١٣٨ في «رمضان ١٣٥٧ هـ = ٤ نوفمبر ١٩٣٨ م». وقد تخرج في جامعة القاهرة بدرجة دكتوراه في علم النفس. ولما أسس الشيخ حسن البنا مجلة الشهاب كتب فيها مقالاً في العدد الأول.

لجمعية العلماء. كان خطيباً ساحراً ومتواضعاً كأحد أبناء الشعب، كان مصلحنا الديني ثورياً خالصاً وحكيماً، لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطي. كان أب المؤتمر الإسلامي حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفاراً عاماً للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية)[1].

ونختتم ما قيل في ابن باديس بفقرة من مقال كتبه الدكتور صالح الخرفي بعنوان «الجزائر والأصالة الثورية» جاء فيه: (وابن باديس هذا الرجل الذي فجّر أعنف معركة فكرية في أدق مرحلة استعمارية. وإذا كانت معجزة عبد القادر معجزة صلابة في معركة سافرة فإن معجزة المصلح تبدو هي الأخرى مدعاة للإكبار وهي تبشر بالشخصية الجزائرية تحت سمع العدوّ وبصره في معركة مقنّعة الجبهات، متعددة الوجوه، ملتوية السبل. سلاحها نفاذ في البصيرة، وعبقرية في المناورة، ومجابهة البطش المتعامي بالإيمان المتبصّر، وإدراك حساس للخطوط الدقيقة التي تفصل بين الغايات والوسائل)[2].

---

(١) عمار أوزغان، الجهاد الأفضل: ص ٢٧.

(٢) صالح الخرفي، «الجزائر والأصالة الثورية»، الثقافة: العدد ٥، السنة الأولى، رمضان المعظم ١٣٩١ هـ = أول نوفمبر ١٩٧١ م.

الخاتمة

في الوقت الذي بدأت فيه الدول الأوروبية تشعر بزهوّ بقوتها العسكرية والاقتصادية كانت ديار المسلمين تعاني من أعراض السقوط الحضاري. فالإسلام قد أبعد كثيراً عن الحكم وهو أبعد في الحياة العقدية والاجتماعية والاقتصادية. في هذه الأثناء كانت أوروبا تنظر بشرهٍ كبير إلى الخيرات التي حبا الله بها أرض المسلمين وتتذكر أيام عز المسلمين وسيادتهم العالم أجمع فترى المناسبة مواتية للثأر؛ لا في الاستيلاء على خيرات المسلمين فحسب بل محاولة تجريدهم من تمسكهم بدينهم. فكانت الدول الأوروبية كلما لاحت فرصة احتل بلد أوروبي بلداً إسلامياً حتى إذا انتهت الحرب العالمية الأولى كانت البلاد الإسلامية كلها تقريباً في قبضة أوروبا.

وكذلك كان مصير الجزائر بل سبقت غيرها في التعرض للاحتلال وذلك لما كانت تتمتع به من قوة بحرية لمدة طويلة جعلت فرنسا ـ أقرب جاراتها الأوروبيات ـ تسرع في التخلص

من قوتها وبمعاونة دول أوروبا الأخرى. بل إن الجزائر كانت ضمن أحلام نابليون التوسعية.

لم يكن احتلال الجزائر مجرد إضافة أرض تمتلكها فرنسا وتستدرّ خيراتها بل بوّابةً لمزيد من التوسع والاحتلال، وشعباً مسلماً أرادت أن تثأر منه لما أصابها من هزيمة في الحروب الصليبية. ووجدت فرنسا في الجزائر شعباً مسلماً لا يقبل الاحتلال فانطلقت ثوراته وانتفاضاته هنا وهناك. ولكن هذه الانتفاضات لم تكن تبحث عن علاج لأسباب السقوط الحضاري إلا قليلاً في أثناء حكم الأمير عبد القادر بل كانت في الغالب تدافع عن حقها في الحياة.

ولما كانت فرنسا تعرف أن ما يدفع الجزائريين ويحركهم إنما هو قوة الإسلام فقد عملت منذ أول يوم على محاربته ومحو الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر. فسيطرت على الأوقاف الإسلامية التي كانت المموِّل للتعليم والمساجد. ثم تدخلت في المناهج الدراسية فمنعت تدريس العلوم الإسلامية وأبقت على بعض الكتاتيب. ولإجاعة الشعب وإفقاره استولت على الأملاك لحكومية وهدمت بعض المساجد وحولت البعض الآخر إلى كنائس وكاتدرائيات. ومنعت الملكية المشاعة، ونهبت معظم الأراضي الخصبة من أصحابها بالقوة وبأساليب أخرى منها الضرائب الباهظة، فتحول الشعب الجزائري إلى مجرد عمال وخدم لدى الفرنسيين.

نظرت فرنسا إلى الانتفاضات التي وقعت فوجدت أن الذين قاموا بها ينتسبون إلى الطرق الصوفية وكانوا أقرب إلى العمل بالكتاب والسنّة ولم يكن تصوفهم مليئاً بالبدع والخرافات فعملت على ترويضهم فمكنت لهم السيطرة على الشعب الجزائري بعد أن فشا الجهل وأعرضت هذه الطرق عن فهم الإسلام الفهم الصحيح، فجعلت منهم القادة والمسؤولين.

وحتى تكتمل صورة الاستعمار الفرنسي البشعة عمدت فرنسا إلى إرسال أعداد كبيرة من مواطنيها للاستقرار في الجزائر بغية تحويلها إلى بلد فرنسي. بل أصدر البرلمان الفرنسي قانوناً يعد الجزائر أرضاً فرنسية، وأن الجزائريين رعايا فرنسيون من حقهم الحصول على الجنسية الفرنسية إذا ما تنازلوا عن تطبيق الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية.

في هذه الأجواء وُلد ابن باديس ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) فوجّهه والده إلى التعليم الإسلامي فحفظ القرآن الكريم ثم تلقى العلم على يد علماء أفاضل في قسنطينة قبل أن يتجه إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة الذي نال منه شهادة التطويع، ليعود إلى الجزائر للتعليم في مساجدها. ولم يمض عليه سوى شهور حتى توجه إلى الحج. وهناك التقى بالعلماء المسلمين في مكة والمدينة ومصر. وكانت الفرصة مواتية له ليستطلع أحوال العالم الإسلامي لأن علماء المدينة كانوا يمثلون دولاً إسلامية كثيرة بل معظم البلاد الإسلامية. وفي أثناء وجوده في المدينة أشار عليه

شيخه حمدان الونيسي أن يهاجر إلى المدينة، ولكن الشيخ حسين الهندي عارض هذا الرأي ونصح له أن يعود إلى الجزائر ليقاوم الاستعمار. وهنا التقى بالإبراهيمي رفيق دربه وكفاحه فأمضيا ثلاثة أشهر يتباحثان حول خطة العمل التي سوف ينتهجانها حين العودة إلى الوطن.

وعاد الشيخ عبد الحميد إلى الجزائر وبدأ حركته العلمية في مساجد قسنطينة مهتماً بالكيف لا بالكم. وكان عمله يخضع لتخطيط دقيق فهو حين يعلّم الشباب يصطفي بعضهم ويشجعهم على مواصلة تعليمهم في الزيتونة. ولم يكن تلاميذه من منطقة واحدة بل كان خلال رحلاته في القطر الجزائري يدعو شيوخ القبائل والزوايا إلى إرسال أبنائهم للدراسة عليه في الجامع الأخضر وبهذا استطاع أن يوصل دعوته إلى جميع أرجاء الجزائر.

وبعد بضع سنوات على بدء عمله التعليمي أضاف إلى التعليم نشاطاً آخر ووسيلة أخرى ألا وهي الصحافة فشارك أولاً في الكتابة في «النجاح» ثم سعى إلى تأسيس صحيفة هي «المنتقد» مهاجماً من خلالها العقائد الفاسدة والبدع والخرافات، داعياً إلى العودة إلى الكتاب والسنّة موضحاً للشعب الجزائري أن له كياناً ووجوداً. وأُوقفت «المنتقد» بعد ثمانية عشر عدداً، فأنشأ جريدة أخرى هي «الشهاب» جعلها منبراً للدعوة إلى العقيدة الصحيحة. وقد كان وجود هذه الصحف إعداداً للدعاة

للعمل المنظم بل إنه من على منبرها دعا إلى الاجتماع وإلى تكوين رابطة بين العلماء. ومن ذكاء ابن باديس أن حَثَّ أصحاب الأقلام على الدعوة إلى إنشاء جمعية للعلماء أو حزب إصلاحي، فكان ما أراد وتأسست جمعية العلماء وانتُخب رئيساً لها. فقادها في وجه الطغيان الفرنسي والحرب السافرة للإسلام ومعتقداته. وإن كانت الجمعية قد صرّح لها بناءً على القانون الفرنسي بأن لا تخوض في الأمور السياسية، ولكن ما كان الدين الإسلامي يوماً يعترف بانفصال الإسلام عن السياسة.

اهتمت هذه الجمعية بتحرير الإنسان أولاً بإصلاح عقيدته وبناء شخصيته العربية الإسلامية فكان ميدان نشاطها الأساسي هو التعليم والتهذيب ومحاربة الآفات الاجتماعية من خمر وميسر وبغاء. لم تدع الجمعية إلى الاستقلال حتى لا تصطدم بالسلطات فتوقفها عن العمل المبارك المجيد الذي جعل أحد علماء المدينة يقول: (إن الجمعية كانت أبرك على الجزائر من المطر). واتخذت الجمعية من الوسائل ما يمكنها من إيصال دعوتها فشارك العلماء في تأسيس النوادي الاجتماعية والثقافية والأدبية، والجمعيات الكشفية والرياضية والفنية. وشاركوا أيضاً في تأسيس الجمعيات الخيرية وحتى جمعيات للتجار.

بعد أن عرضنا لهذه النشاطات في حياة ابن باديس رحمه الله أتينا بموجز سريع لبعض ما كُتب حول ابن باديس حريصين في ذلك على عمق التحليل ودقة الفهم وصدق اللهجة ما استطعنا

إلى ذلك سبيلاً. فأوردنا أقوالاً لبعض المفكرين والمؤرخين ثم زملاء ابن باديس وتلاميذه.

وكان الحديث قبل ذلك عن ابن باديس واهتمامه رحمه الله بالعالم الإسلامي وقضاياه وحاولنا عقد مقارنة بينه وبين أحد دعاة هذا العصر البارزين الشيخ حسن البنا رحمه الله.

لعل من أهم مزايا ابن باديس تمتّعه رحمه الله بقوة الإحساس بما تعانيه أمته من ضعف وتخلّف وجهل مدركاً أن العلاقة بين الإيمان والضعف والتخلف علاقة قوية. فراح يُحيي في الشعب الجزائري القوة الإيمانية. ولم يدعُ ابن باديس شعب الجزائر إلى حمل السلاح لأنه كان يرى أن شعباً جائعاً خائفاً جاهلاً مريضاً ضعيف الإيمان لا تقوى سواعده على حمل السلاح فحارب هذه الأمراض جميعاً بالإسلام.

ولعلنا من دراساتنا هذه لابن باديس نستنتج بعض الخصائص التي ينبغي أن تتوفر في الداعية:

١ ـ الفهم الصحيح للإسلام وأن علماء الدين والدعاة إليه ليس من شأنهم أن ينعزلوا في بروج عاجيّة بل هم المسؤولون عن قيادة الأمة والأخذ بيدها إلى العزة والكرامة.
٢ ـ قوة الإيمان والعقيدة فهي الطاقات المحركة التي تدفع الفرد كما تدفع المجتمع ليسعى إلى رفض كل عبودية سوى عبوديته لله عز وجل.
٣ ـ الإحساس المرهف الذي يحرك الإنسان إلى النشاط. وقد

كان إحساس ابن باديس مرهفاً فأنتج العمل وكانت عباراته مشحونة بقدر من البلاغة وقوة الأسلوب. وقد أنتج هذا الإحساس شعراً جميلاً قوياً[1].

٤ ـ العلم الغزير، فلم يقرأ ابن باديس لينال شهادة ووظيفة بل درس ليصل إلى أعماق هذا الدين برفق فعلم منه ما ساعده على فهم نفوس مدعوّيه فعرف كيف يدعوهم وكيف يرشدهم ويهديهم.

٥ ـ الاطلاع على أحوال العالم حوله ليعرف كيف يتحرك ضمن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية العالمية والمحلية. فقد كان له فهم عميق بأحوال السياسة الأوروبية والفرنسية ظهرت في كتاباته.

وهناك مزايا كثيرة يمكن استنتاجها من خلال هذه الدراسة.

ويمكن أن نقترح في ختام هذه الدراسة أن نجعل ضمن مناهج المدارس الإعدادية نماذج من الدعاة في العصر الحاضر لنؤكد لأبنائنا بأن الأمة التي أنجبت القادة والعظماء في جميع عصورها استطاعت أن تنجب من النابغين في العصر الحاضر وذلك للتنبه إلى حقيقة هامة وهي أن الأمة الإسلامية قادرة بإذن الله متى ما تمسكت بكتاب ربها وسنّة نبيّها أن تنهض النهضة القوية وتعيد ما اندثر من أمجادها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) فاتني أن أذكر شاعرية ابن باديس فيما مضى. انظر الملحق الخامس.

مصادر البحث

أولاً: الوثائق العربية:

١ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. نصوص أساسية ووثائق من ١٣٥٠ ـ ١٣٦٣ هـ = ١٩٣١ ـ ١٩٤٤ م. رقم ٧، ٨، ٩. قسنطينة: مديرية الوثائق ١٩٨٢ م.

٢ ـ سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائيين المنعقد عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م. أعيد تصويره. الجزائر: دار الكتب (بدون تاريخ).

٣ ـ القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الإصلاحية، قسنطينة: المطبعة الجزائرية الإسلامية (بدون تاريخ).

٤ ـ وصل تلغراف بعث إلى القاهرة من طرف الشيخ عبد الحميد «نحن معكم» ٧ أكتوبر ١٩٣٨ م. علبة رقم ١ ملف ب. قسنطينة: مديرية الوثائق.

٥ ـ من محمد الصالح بن محمد الهاشمي ـ شيخ الطريقة القادرية بالوادي: نداء لعموم أبناء قطرنا النبيل «دعوة لتأييد فرنسا في الحرب العالمية الثانية» (بدون تاريخ). اكس ان بروفانس، الأرشيف الوطني الفرنسي لما وراء البحار، عليه رقم 16 H72.

٦ ـ الصحف:

١ ـ البصائر ـ لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صدرت من ١٣٥٥ ـ ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ م (السلسلة الأولى) ثم صدرت بعد الحرب العالمية الثانية.

٢ ـ الرشاد ـ لسان حال جمعية الطرق الصوفية صدرت ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ م.

٣ ـ السنة النبوية المحمدية ـ لسان حال جمعية العلماء المسلمين ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م صدر منها ثلاثة عشر عدداً فقط.

٤ ـ الشريعة: لسان حال جمعية العلماء ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م صدر منها سبعة أعداد فقط.

٥ ـ الشهاب: أسسها عبد الحميد بن باديس ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م واستمرت حتى عام ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م.

٦ ـ الصراط السوي: لسان حال جمعية العلماء ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م.

٧ ـ المنتقد: أصدرها نخبة من مثقفي قسنطينة وعلى رأسهم ابن باديس في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ = ١٩٢٥ م صدر منها ثمان عشر عدداً.

٨ ـ النجاح: من ١٣٣٧ ـ ١٣٧٦ هـ (١٩١٩ ـ ١٩٦٢ م). صدرت أولاً وطنية ثم مالأت الحكومة. كانت تصدر ثلاث مرات أسبوعياً ثم أصبحت يومية.

ثانياً: المقابلات الشخصية:

١ ـ بن ذياب، أحمد: من تلاميذ الجامع الأخضر ثم معلميه، أديب وشاعر ذو رأي صريح. حدثني كثيراً عن تاريخ الجزائر في

زيارتي الأولى للجزائر ولم أع كثيراً مما قال لأنني لم أكن تعرفت إلى الجمعية. كان لقائي به في منزله في البليدة في ١٣ شوال ١٤٠٣ هـ = ٢٣ يوليه ١٩٨٣ م.

٢ ـ بوكوشة، حمزة: من كبار العلماء، عاصر ابن باديس منذ البداية، قابلته في منزله بالعاصمة، وسجلت حديثه بآلة التسجيل. يصعب فهم لهجته العامية لكنها ممتعة جداً، وصوته مميز. قابلته يوم ١٠ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٤ نوفمبر ١٩٨٣ م.

٣ ـ حمّاني، أحمد: رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجمهورية الجزائرية. لم أقابله ولكن حصلت على نسخة من إجابته لزميلي إسحق السعدي بجامعة الإمام محمد بن سعود، والإجابة مطبوعة على الآلة الكاتبة ومؤرّخة في رجب ١٤٠٤ هـ.

٤ ـ خير الدين، محمد: من أقدم المشاركين في جمعية العلماء منذ تأسيسها، كان تاجراً ثرياً وما زال ـ أمد الله في عمره ـ، زرته في منزله الجميل الذي يطلق عليه دار الأمان في بير خادم من ضواحي العاصمة الجزائر في ١٩ صفر ١٤٠٤ هـ = ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ م. وقد كان كريماً مضيافاً، وهكذا هو الشعب الجزائري المسلم.

٥ ـ الرفاعي، أحمد شرفي: أستاذ الأدب العربي بجامعة قسنطينة، من تلاميذ معهد ابن باديس. قابلته في قسنطينة في أثناء زيارتي لها لجمع المعلومات في ١٥ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٩ نوفمبر ١٩٨٣ م وأجريت مراسلات معه منها رسالة مهمة في ٢٥/ ١٢/ ١٩٨٣ م.

٦ ـ رمضان، محمد الصالح: من تلاميذ الجامع الأخضر ثم معلميه. من أعلم الجزائريين بالحركة الإصلاحية، تم لقاء معه

في منزله في ١١ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ م.

٧ ـ شيبان، عبد الرحمٰن: وزير الشؤون الدينية ـ حينما قابلته ـ من تلاميذ ثم معلمي جمعية العلماء، قابلته في مكتبه في الوزارة مرتين مع اثنين من تلاميذه عبد القادر رباني ومحمد شيوخ. تحمَّس للموضوع وقدّم لي معلومات قيمة. تمت اللقاءات في ٩ و١٦ صفر ١٤٠٤ هـ = ١٣ و ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣ م.

٨ ـ مرحوم، علي رحمه الله: تم لقاء معه في منزله بالقبة في الجزائر العاصمة يوم ١٤٠٤/٢/١٩ هـ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ م. والشيخ مرحوم من تلاميذ الجمعية ومعلميها وكان له مساهمات في صحف الجمعية.

٩ ـ هدّام، تيجيني: طبيب وجراح مشهور مختص بجراحة القلب. جاهد في الثورة طبيباً ودبلوماسياً، تم لقاء معه في السفارة في جدة حين كان سفيراً للجزائر في المملكة في ٢٢ رمضان ١٤٠٣ هـ = ٣ يوليه ١٩٨٣ م.

١٠ ـ الهيلة، محمد الجيب: تونسي يعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، تم لقاء معه في منزله في ٤ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ = ٢٥ نوفمبر ١٩٨٧ م. وقد وافق على الإشراف على بحثي للدكتوراة حول الاستشراق الفرنسي ولكن حالت ظروف وشخوص دون إتمامه.

ثالثاً: المراجع:

١ ـ **الإبراهيمي، محمد البشير**، عيون البصائر. ط ٢. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٩ م.

٢ ـ **ابن باديس، عبد الحميد**، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. الجزائر: وزارة الشؤون الدينية، ١٩٨٢ م.

٣ ـ **ابن باديس، عبد الحميد**، مجالس التذكير من كلام البشير النذير. الجزائر: وزارة الشؤون الدينية، ١٩٨٣ م.
٤ ـ **أوزغان، عمار**، الجهاد الأفضل. بيروت: دار الطليعة ١٩٦٨ م.
٥ ـ **بن نبي، مالك**، شروط النهضة. ط ٣. بيروت: دار الفكر ١٩٦٠ م.
٦ ـ **بن نبي، مالك**، مذكرات شاهد القرن ـ الطفل، ترجمة مروان القنواتي. ط ١. بيروت: دار الفكر ١٩٦٩ م.
٧ ـ **بن نبي، مالك**، مذكرات شاهد القرن ـ الطالب. ط ١. بيروت: دار الفكر ١٩٧٠ م.
٨ ـ **الجابري، محمد صالح**، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠ ـ ١٩٦٢ م، تونس: الدار العربية للكتاب ١٩٨٣ م.
٩ ـ **الجندي، أنور**، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م.
١٠ ـ **جوليان، شارل أندري**، أفريقيا الشمالية تسير. ترجمة المنجي سليم وآخرين. ط ٣. تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م.
١١ ـ **الجيلالي، عبد الرحمن**، تاريخ الجزائر العام في أربعة أجزاء. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، وبيروت: دار الثقافة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م.
١٢ ـ **الحداد، الطاهر**، امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع. ط ٤. تونس: الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م.
١٣ ـ **حمّاني، أحمد**، صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة

للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس. قسنطينة: دار البعث ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

١٤ ـ **ديوز، محمد علي**، نهضة الجزائر وثورتها المباركة ج ٢. الجزائر: المطبعة العربية ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م.

١٥ ـ **رابح، تركي**، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد التربية والإصلاح في الجزائر. ط ٣. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨١.

١٦ ـ **سعد الله، أبو القاسم**، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ط ٣. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ١٩٨٢ م.

١٧ ـ **سعد الله، أبو القاسم**، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث. القاهرة: دار المعارف (بدون تاريخ).

١٨ ـ **سعد الله، أبو القاسم**، الحركة الوطنية الجزائرية ج ٢: ١٩٠٠ ـ ١٩٢٠ م. ط ٣. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨٣ م.

١٩ ـ **سعد الله، أبو القاسم**، الحركة الوطنية الجزائرية ج ٣. الطبعة الثالثة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٦ م.

٢٠ ـ **الطالبي، عمار**، عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره (إعداد وتصنيف). ط ١. الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م.

٢١ ـ **فضلاء، محمد الطاهر**، قال الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد ابن باديس. قسنطينة: دار البعث ١٩٦٨ م.

٢٢ ـ **فيلالي مختار**، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني. بحث مطبوع على الآلة الكاتبة مقدم

لمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة ١٩٧٦ م موجود لدى مديرية الوثائق بقسنطينة.
٢٣ ـ فيلالي، عبد العزيز، جوانب من تاريخ قسنطينة السياسي والحضاري. قسنطينة: وزارة الشؤون الدينية ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.
٢٤ ـ قاسم، محمود، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية. ط ٢. القاهرة: دار المعارف (بدون تاريخ).
٢٥ ـ الكيلاني، نجيب، حول الدين والدولة. ط ٢. بيروت: دار النفائس ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م.
٢٦ ـ المدني، أحمد توفيق، حياة كفاح، القسم الثاني في الجزائر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٨ م.
٢٧ ـ المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر. الجزائر: المطبعة العربية الإسلامية ١٩٣٠ م = ١٣٥١ هـ.
٢٨ ـ مُطَبّقاني، مازن بن صلاح، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية ١٣٤٩ ـ ١٣٥٨ هـ = ١٩٣١ ـ ١٩٣٩ م. دمشق: دار القلم ١٩٨٨ م.
٢٩ ـ الميلي، مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٣. الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية ١٩٦٤ م.
٣٠ ـ الميلي، مبارك بن محمد، رسالة الشرك ومظاهره. ط ٣. قسنطينة: دار البعث ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م.
٣١ ـ ناصر، محمد، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ م - ١٩٣٩ م. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠ م.

٣٢ ـ **النفيسي، عبد الله فهد**، عندما يحكم الإسلام. لندن: دار طه للنشر (بدون تاريخ).

رابعاً: المقالات:

١ ـ **الإبراهيمي، محمد البشير**، «أنا». **مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة**، العدد ٢١ سنة ١٩٦٦ م.
٢ ـ **الشيخ، عمران أبو**، «الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي شلف ١٨٦٧ ـ ١٨٩٢ م». **مجلة الأصالة**، ملحق خاص ١٩٨٠ م.
٣ ـ **بوكوشة، حمزة**، «شيخ الجماعة عبد القادر المجاوي». **الثقافة**: العدد ١٠ في رجب ١٣٩٢ هـ = سبتمبر ١٩٧٢ م.
٤ ـ **الجابري، محمد صالح**، «احتفالات تونس بذكرى وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس». **الثقافة**: العدد ٩٨ في رجب/ شعبان ١٤٠٧ هـ = مارس/ أبريل ١٩٨٧ م.
٥ ـ **جارودي، رجاء**، «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم». **الثقافة**: عدد ٧٦ س ١٣ رمضان/ شوال ١٤٠٣ هـ = يوليه/ أغسطس ١٩٨٣ م.
٦ ـ **حماني، أحمد**، «هل كان ابن باديس يفكر في الثورة ويعمل لها؟» **العصر**: العدد ٨٥ في ٥ رجب ١٤٠٣ هـ = ١٨ أبريل ١٩٨٣ م.
٧ ـ **خرفي، صالح**، «الجزائر والأصالة الثورية». **الثقافة**: العدد ٥ س١ رمضان المعظم ١٣٩١ هـ = نوفمبر ١٩٧١ م.
٨ ـ **ذياب، أحمد بن**، «ابن باديس في ذكرى وفاته السادسة والثلاثين». **الأصالة**: العدد ٣٢ في ربيع الثاني ١٣٩٦ هـ = أبريل ١٩٧٦ م.

٩ ـ سعد الله، أبو القاسم، رأي في دور جمعية العلماء. جريدة الشعب اليومية: الجزائر في ٥ رمضان ١٤٠٦ هـ = ١٤ مايو ١٩٨٦ م.
١٠ ـ شنب، سعد الدين بن أبي، «النهضة العربية في الجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة». مجلة كلية الآداب: العدد الأول السنة الأولى ١٩٦٤ م.
١١ ـ عثمان، محمد فتحي، «دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس والدعاة المعاصرين في الشرق العربي». مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض: العدد الرابع ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م.
١٢ ـ قسوم، عبد الرزاق، «ابن باديس والشباب». مجلة الرسالة ـ الجزائر: العدد ٢/٣ في جمادى الأولى/ الثانية ١٤٠٠ هـ = أبريل ومايو ١٩٨٠ م.
١٣ ـ مرحوم، علي، «لمحات من حياة الشيخ ابن باديس». الأصالة: العدد ٢٤ في مارس/ أبريل ١٩٧٥ م.
١٤ ـ الميلي، محمد، «مشاكل كتابة التاريخ الحديث الجزائري». المجاهد الثقافي ـ الجزائر: عدد ١٠ سنة ١٩٦٩ م.

خامساً: المراجع الأجنبية:

● الوثائق الفرنسية:

1- L'année des Indigenes Algerienne 1936. Janvier 1937 (AGG 11 H47).
2- L'année Indigene Algerienne 1937, Vue du departement d'Alger 1937. AGG 10H88[19].
3- Rapport Sur La Situation Politique et Administrative Des Indigenes De L'Algerié Au 31 Janvier 1931 AGG 9H11.

4- Situation Politique Dans Le Departement De Constantaine à la Data Du 15 Juin 1939, Constantaine Le 10 Juillet 1939 AGG 10H88[15].
5- Surete Dept. Rapport No 5861, Assemble de L'Association des Ulema 29 Sept. 1936. AGG 9H46.

● الكتب والمقالات:

1- Ageron, Charles Robert. Histoire De L'Algerie Contemparaine Tom II, Paris: Press Universitaire, 1979.
2- Dirlik, Andre, Abdul Hamid Ben Badis (1889-1940) Ideolgist of Islamic Reform and Leader of Algerian National Movement, Unpubliouid Ph.D Thesis, Mecill University, Canada, 1971.
3- Horne, Allistaire, A Savage War of Peace, Algeria 1954-1962 London, Macmillan London Limitée. 1977.
4- Turraine Yuvanne, Affortment Culturale dans L'Algerie Coloniale. Paris: Francois Maspero, 1971.
5- Belguedj, M.S. Ben Badis et Le Mutazilizme. Revue de L'Occidente Musulman De La Mediterranee No 13 1er Sen 1973.
6- Rechement F. DE. Les Ulema Algeriens Reformists. La Nouvelle Revue Française D'outre Mer No 7-8., July August 1955.

الملاحق

١ ـ القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

٢ ـ دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها.

٣ ـ رسالة من الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الفضيل الورتلاني حول البعثة الأزهرية.

٤ ـ برقية من الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى علوبة باشا حول موقف العلماء في المؤتمر البرلماني العربي لدراسة وضع فلسطين عام ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م.

٥ ـ من شعر الإمام عبد الحميد بن باديس.



الملحق الأول

القانون الأساسي
لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

القسم الأول: الجمعية

الفصل الأول: تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» مركزها الاجتماعي بنادي الترقي الكائن ببطحاء الحكومة عدد ٩ بمدينة الجزائر.

الفصل الثاني: هذه الجمعية مؤسسة حسب نظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسوي المؤرخ بغرة جويلية سنة ١٩٠١.

الفصل الثالث: لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية.

القسم الثاني: غاية الجمعية

الفصل الرابع: القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل.

الفصل الخامس: تتذرع الجمعية للوصول إلى غايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة.

الفصل السادس: للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي.

القسم الثالث: أعضاء الجمعية

الفصل السابع: أعضاء الجمعية على ثلاثة أقسام:
مؤيدون وقيمة اشتراكهم عشرون فرنكاً.
عاملون وقيمة اشتراكهم عشرة فرنكات.
مساعدون وقيمة اشتراكهم خمسة فرنكات.

الفصل الثامن: يتألف المجلس الإداري من الأعضاء العاملين فقط.

الفصل التاسع: الأعضاء العاملون فقط هم الذين ينتخبون كل سنة أعضاء المجلس الإداري المتألف من رئيس ونائب له وكاتب

عام ونائب له وأمين مال ونائب له ومراقب وأحد عشر عضواً مستشاراً.

الفصل العاشر: للجمعية أن تنشيء بمركزها بالجزائر مكتباً يكون على رأسه مدير مكلف بإدارة شؤونها ومصالحها.

الفصل الحادي عشر: وللجمعية أيضاً أن تحدث مكاتب عمالية في كل من العمالات الثلاث وعلى رأس كل مكتب منها كاتب مكلف بإدارة شؤون الجمعية وهذه المكاتب كلها تكون مرتبطة أتم الارتباط بالمكتب المركزي.

الفصل الثاني عشر: الأعضاء العاملون هم الذين يصح أن يطبق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى.

الفصل الثالث عشر: الأعضاء المؤيدون والأعضاء المساعدون يشملون كل من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة المبينة بالفصل المتقدم وأراد أن يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الإصلاحية.

القسم الرابع: مالية الجمعية

الفصل الرابع عشر: مالية الجمعية تتألف من معلوم اشتراكات الأعضاء بكافة أنواعهم المبينة في الفصول المتقدمة.

الفصل الخامس عشر: للجمعية أن تلتمس وتقبل من الحكام المحليين إعانات مالية.

الفصل السادس عشر: مبلغ الاشتراكات والإعانات يقبضه أمين المال ويسلم فيه وصلاً.

الفصل السابع عشر: مال الجمعية يوضع باسمها في إحدى البنوك المحلية ولا يبقي أمين المال منه تحت يده أكثر من خمسمائة فرنك.

الفصل الثامن عشر: لا يجوز إخراج شيء من المال بقصد صرفه إلّا بأمر كتابي ممضي من الرئيس والكاتب العام وأمين المال، وذلك تنفيذاً لما يقرره المجلس الإداري.

الفصل التاسع عشر: يصرف مال الجمعية فيما تقتضيه مصلحتها ويوجبه الوصول إلى غايتها المبينة بالفصل الرابع من هذا القانون الأساسي.

القسم الخامس: الاجتماعات الإدارية والعامة

الفصل العشرون: المجلس الإداري يجتمع في الأوقات التي يراها مناسبة ويجب أن تكون جلساته كلها مسجلة في دفتر محاضر الجلسات وكل قرار يقرره المجلس ولا يكون مسجلاً بالدفتر المعد لذلك يعتبر لغواً لا عمل عليه ويجب أن يمضي المحضر رئيس الجلسة وكاتبها.

الفصل الحادي والعشرون: ينعقد الاجتماع العام لسائر

الأعضاء مرة في السنة وينعقد هذا الاجتماع بمدينة الجزائر إثر استدعاء من الرئيس وزيادة على هذا الاجتماع السنوي يجوز عقد اجتماع آخر في أثناء السنة في الزمان والمكان اللذين يعينهما الرئيس وبعد أن يتفاوض أعضاء الجمعية في أثناء الاجتماع العمومي العادي في برنامج الجمعية وتعرض عليهم أعمال الجمعية في السنة السابقة تنعقد جلسة ثانية يحضرها الأعضاء العاملون والمؤيدون والمساعدون ويعلمون بحالة الجمعية الأدبية والمالية ثم يباشر الأعضاء العاملون فقط انتخاب الهيأة الإدارية.

الفصل الثاني والعشرون: إذا شجر خلاف بين عضوين أو أكثر من أعضاء الجمعية أو تغيرت سيرة أحد الأعضاء بما تراه الجمعية ماساً بحياتها فلمجلس الإدارة أن يعين لجنة بحث وتحكيم تشمل خمسة من الأعضاء العاملين وخمسة من الأعضاء المؤيدين وهذه اللجنة تعرض نتيجة بحثها وما تراه في القضية على المجلس الإداري وهذا الأخير يطبق العقوبات والأحكام المنصوص عليها في اللائحة الداخلية التي ستوضع للجمعية.

الفصل الثالث والعشرون: لا ينظر في طلب متعلق بحل الجمعية إلّا إذا كان صادراً من ثلث الأعضاء على الأقل ولا يعمل به ولا ينفذ إلّا إذا صادق عليه أربعة أخماس الأعضاء العاملين وإذا انحلت الجمعية ـ لا قدّر الله ـ يسلم أثاثها ومالها إلى جمعية خيرية إسلامية يعينها المجلس الإداري.

الملحق الثاني

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وصلى الله على محمد وآله وسلم
دعــوة
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
وأصـولهــا

١ ـ الإسـلامُ هُو دين الله الذي وضَعهُ لهدَايةِ عِبَاده، وأرسل بهِ جمِيعَ رسُلِه، وكمَّله على يدِ نَبيهِ محمَّد الذي لا نَبِيَّ مِن بعْدِه.

٢ ـ الإسْلامُ هُو دِين البَشريَّةِ الذي لا تَسْعَدُ إلّا بهِ وذلِك لأنَّهُ:

أولاً: كما يدْعُو إلى الأخُوَّة الإسلامِيَّة بيْن جمِيع المسلمين يُذكّرُ بالأُخوّةِ الإنسانيةِ بيْن البَشر أجمعِين.

ثانياً: يُسَوّي في الكرامةِ البشريةِ والحُقُوق الإنسانيةِ بيْن جمِيع الأجْناس والألوَان.

ثالثاً: لأنَّه يَفْرِضُ العَدل فرضاً عامّاً بين جميع النَّاس بِلا أدنى تَمْييز.

رابعاً: يدْعُو إلى الإحْسان العَام.

خامساً: يُحَرِّمُ الظُّلْم بجمِيع وُجُوهِه وبأقَل قَلِيلِه من أيّ أحَد على أيّ أحَدٍ مِن النَّاس.

سادساً: يُمجّد العقل ويدعو إلى بنـاءِ الحياة كلِهـا على التَّفكير.

سابعاً: ينشرُ دعوتَه بالحُجة والإقْناع لا بالختْل والإكراه.

ثامنـاً: يَترك لأهلِ كل دينٍ دينَهم يَفهَمونَهُ ويُطبقونهُ كما يشاءون.

تاسعاً: شرَّك الفُقراء مَع الأغنياء في الأمْوال وشَرع مثـل القِراض والمُزارعة والمغارسة ممَّا يَظْهَر بهِ التَّعاون العَادل بَيْن العُمَّال وأرباب الأراضي والأمْوال.

عاشراً: يدعو إلى رحمةِ الضَّعيف فيُكْفى العـاجِز ويُعلَّم الجاهل ويُرشَدُ الضَّال ويُعان المُضْطرُّ ويُغاث الملْهوف ويُنصَر المظلُوم ويُؤخَذُ على يدِ الظَّالم.

حادي عشر: يُحرم الاستِعباد والجَبروت بجميع وجوهِه.

ثاني عشر: يجعلُ الحكمَ شورى ليسَ فيه استبدادٌ ولوْ لأعدَلِ النَّاس.

٣ ـ القُرآن هُو كتاب الإسْلام.

٤ ـ السنَّة «القَوليةُ والفِعليةُ» الصَّحيحة تَفسيرٌ وبَيان للقُرآن.

٥ ـ سلُوكَ السَّلفِ الصَّالح «الصَّحَابةِ والتَّابِعِين وأتْباع التَّابِعين» تطْبِيقٌ صحيحٌ لهدْي الإسْلام.

٦ ـ فُهوم أئِمَّة السَّلفِ الصَّالح أصْدَقُ الفُهُومِ لحقَائِق الإسلام ونُصوص الكتاب والسنَّة.

٧ ـ البدعةُ كلُّ ما أُحْدِث على أنَّه عِبادةٌ وقُربةٌ ولم يَثْبُت عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسَلَّم فِعْلُه. وكل بِدعَةٍ ضلالة.

٨ ـ المصْلَحةُ كل ما اقْتضتْه حاجةُ النَّاس في أمْرِ دنْياهم ونظامِ معيشتِهم وضبْطِ شؤونِهم وتَقدُّم عُمرانهم مما تُقِرّه أصُول الشَّريعَة.

٩ ـ أفضلُ الخلْق هو محمد ﷺ لأنَّه:

أولاً : اختَاره الله لتَبليغ أكملِ شرعةٍ إلى النَّاس عامَّة.

ثانياً : كان على أكمَل أخْلاق البَشريةِ.

ثالثاً : بلَّغ الرّسالةَ ومثَّل كمالها بذاتِه وسيرتِه.

رابعاً: عَاش مجاهِداً في كل لحظَةٍ من حياتِه في سبيلِ سعادة البشرِية جمْعاء حتَّى خرج من الدُّنيا ودرعُه مرهونة.

١٠ ـ أفضلُ أمَّتِه بعدَه هم السلف الصَّالح لكمَال اتِّباعِهم لهُ.

١١ ـ أفضلُ المؤمنين هم الذين آمنوا وكان يتَّقُون وهمُ الأولياءُ والصَّالحون فحظُّ كل مؤمِنٍ من ولايَة الله على قدْر حظِّهِ من تَقْوى الله.

١٢ ـ التَّوحيدُ أسَاس الدِّين فكلّ شركٍ في «الاعتِقاد أو في القَول

أو في الفِعل» فهو باطلٌ مردودٌ على صَاحبِه.

١٣ ـ العملُ الصالح المبْنيُّ على التَّوحيد: بِهِ وحده النَّجاة والسَّعادة عنْدَ الله؛ فَلا النَّسبُ ولا الحَسبُ ولا الحظُّ بالذي يُغْني عن الظَّالم شيْئاً.

١٤ ـ اعتِقَاد تصرُّف أحدٍ مِن الخلْق مع الله في شيء مَا؛ شركٌ وضَلالٌ ومنْهُ اعتِقَاد الغوْث والديوان.

١٥ ـ بنَاءُ القِباب على القُبور ووقْد السُّرج عليْها والذبحُ عنْدها لأجْلها والاستغاثةُ بأهلِها ضلال من أعْمال الجاهِليَّة ومضاهاةٌ لأعْمال المُشرِكين. مَن فعله جهْلاً يُعلَّم ومَن أقرَّه ممَّن ينْتَسِب إلى العلْم فهُو ضالٌ مُضِلٌّ.

١٦ ـ الأوضاع الطُرقِيةُ بدْعةٌ لم يعْرِفْها السَّلَفُ ومبْناها كلُّها على الغُلوّ في الشيْخ والتحيُّز لاتّباع الشيْخ وخِدمةِ دار الشَّيْخ وأولاد الشَّيْخ إلى مَا هُنَالك من استِغْلال وإذلال وإعانة لأهْل الإذلال والاسْتِغْلال.. ومِن تجْميدٍ للعقُول وإماتَة للهِمَم وقتْل للشعور وغيْر ذلك من الشُّرور.

١٧ ـ ندْعو إلى مَا دعَا إليْه الإسْلام ومَا بَيَّناه منهُ من الأحْكام بالكِتاب والسُّنَّةِ وهدي السَّلفِ الصَّالح من الأئمة، معَ الرَّحمةِ والإحْسان دون عدَاوة أو عدوان.

١٨ ـ الجَاهِلون والمغْرُورون أحقُّ النَّاس بالرَّحمةِ.

١٩ ـ المُعانِدون المستغِلُّون أحقُّ النَّاس بكل مشروع من الشدَّة والقسْوَة.

٢٠ ـ عنْد المصلَحة العامَّة من مصالح الأمَّة، يجب تناسي كل خِلافٍ يُفَرّق الكلِمَة ويُصدّع الوَحْدة ويُوجدُ للشَّر الثُّغرة، ويَتحتَّم التَّآزر والتَّكاتُفُ حتى تَنْفَرج الأزمة وتزُول الشّدّة بإذن الله ثم بقُوّة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة.

قل هذه سبيلي: أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين.

عبد الحميد بن باديس

بقسنطينة بالجامع الأخضر إثر صلاة الجمعة

٤ ربيع الأول ١٣٥٦

الملحق الثالث

رسالة من الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الفضيل الورتلاني حول البعثة الأزهرية.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

بقسنطينة ٨ جمادى/ ٢ ١٣٥٧ هـ = ٥ أوت ١٩٣٨ م.

إلى الابن الكريم الشيخ الفضيل الورتلاني وسائر الإخوان العاملين في سبيل الله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فإن البعثة الأزهرية تتوقف على أمرين إذن السفر والنفقة، فأما الإذن فقد ذكرتم أنه سهل الحصول عليه من هنالكم، وأما النفقة فالجمعية غير مقتدرة عليها الآن لأن ماليتها لا تدخل إلّا في آخر سبطامبر إن شاء الله. فأريد منكم أولاً أن تتحققوا التحصيل على الإذن من هنالكم وأن تعرفوني بما يلزم كل تلميذ لنفقة سفره لأنظر إذا كان يمكنني تحصيل المطلوب. أما أعضاء البعثة إن شاء الله فهم المشايخ: الفضيل الورتلاني، إسماعيل آعراب، محمد الغسيري، أحمد حمّاني، مصعب ابن

سعد الجيجلي أو بعضهم عند العجز عن كلهم.

وأما البعثة الشامية فإننـي أختار أن تكون من جمعية التربية والتعليم القسنطينية. إذ يمكن أن ترسل من تلاميذها وتلميذاتها ستة أو ثمانية ولا مانع من أن يكون الطلب الموجه إلى الوزارة من جمعية العلماء والبعثة من جمعية التربية والتعليم إذ هما كشيء واحد. فأرجو أن تعرفوا الأخ السيد خمي بهذا. وفي هذا المساء قد كاتبته شاكراً ومبيناً له عدد البعثة منتظراً جوابه.

سلامي إلى الإخوان كلهم من أفارقة وشرقيين وغربيين.

والسلام من أخيكم عبد الحميد بن باديس.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

قسنطينة ٨ جمادى ٢ ١٣٥٧هـ ٥ أغسطس ٣٨ ١٩م

إلى الابن الكريم الشيخ الفضيل الورتلاني وسائر الإخوان العاملين بسبيل الله (؟)
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

وبعد فإن البعثة الأزهرية تتوقف على أمرين الإذن بالسفر والنفقة فأما
الإذن فقد ذكرتم أنه سهل الحصول عليه من هنالكم وأما النفقة فالجمعية
غير مقتدرة عليها الآن لأن ماليتها لا تؤدي إلا الأمر الأكبر (؟) سنكافح إن شاء الله
فما نريد منكم أولا أن تحققوا التحصيل على الإذن من هنالكم وأن تعرفونا
بما يلزم للتلميذ لنفقة شهره لأنظر إذا أمكنني تحصيل المطلوب
أما أعضاء البعثة إن شاء الله فهم الطلبة (؟) : الفضيل الورتلاني
إسماعيل آكراب، محمد الغسيري، أحمد حماني، صالح بن سعد الجيجلي
أو بعضهم بعد التجربة للكل.

وأما البعثة الشامية فإنني أختار أن تكون من جمعية التربية والتعليم
القسنطينية. إذ يمكن أن نرسل من تلاميذها وتلميذاتها شبانا وشابات
ولا مانع من أن يكون الطلب الموجه إلى الوزارة من جمعية العلماء،
والبعثة من جمعية التربية والتعليم إذ هما كشيء واحد. فأرجو
أن تعرفوا الأخ السيد عمر بهذا. ومن هذا [illegible]، فقد كاتبته تذكارا.
و[illegible] البعثة منتظرا جوابه

سلامي إلى الإخوان كلهم من أعرفه وشريفين (؟) وكريس (؟)
والسلام من أخيكم عبد الحميد بن باديس



الملحق الرّابع

حلوبه باشا القاهرة

نحن معكم جمعية العلماء

ابن باديس

Nombre de mots

Taxe ...gno

١٩٣٨

الملحق الخامس

من شعر الإمام عبد الحميد بن باديس*

تحية المولد الكريم

أُلقيت ليلة حفلة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة

حييت يا جمعَ الأدب ورقيت ساميةَ الرتبْ
وَوُقِيتَ شرَّ الكائديـ ـن ذوي الدسائس والشغبْ
ومُنِحت في العلياء ما تسمو إليه من أربْ

* * *

أحييت مولد من به حيِيَ الأنام على الحِقَبْ
أحييت مولده بما يُبري النفوسَ من الوصبْ
بالعلم والآداب والـ أخلاق في نشءٍ عجبْ

* * *

* عن مجالس التذكير من حديث البشير النذير للشيخ عبد الحميد بن باديس. ط الأولى، وزارة الشؤون الدينية ١٤٠٣ هـ (الصفحات من ٣٠٧ ـ ٣١٢).

نشءُ على الإسلام أُسـ ـس بنائه السامي انتصبْ
نشءُ بحُبِّ محمدٍ غذّاه أشياخٌ نجبْ
فبِهِ اقتدَى في سيره وإليه بالحق انتسبْ
وعلى القلوب الخافقا تِ إليه رأيته نصبْ
بالروحِ يَفديها وما يُغري النّفوسَ من النشبْ
وبخُلقه يَحمِي حما ها أو ببارقة القُضُبْ
حتى يعودَ لقومه من عِزِّهم ما قد ذهبْ
ويرى الجزائرَ رجعت حقُّ الحياةِ المستلَبْ

* * *

يا نشءُ يا ذخرَ الجزا ئر في الشدائد والكُرَبْ
صدحت بلابِلُك الفصا حُ فعمَّ مجتمعنا الطربْ
وأذقْتَنَا طُعماً من الـ ـفصحى أَلَذَّ من الضرَبْ
وأريت للأبصار ما قد قرَّرتْه لك الكتُبْ:
«شعبُ الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسبْ»
«من قال حال عن أصله أو قال مات فقد كذبْ»
«أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلبْ»
يا نشءُ أنت (رجاؤنا) وبك (الصباح) قد اقتربْ
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهبْ
وارفع منار العدل والـ إحسان واصدم من غصبْ
وأذق نفوس الظالميـ ـن السمَّ يُمزَجُ بالرهبْ
واقلع جذورَ الخائنيـ ـن فمنهمُ كلُّ العطبْ

واهــزز نفـوس الجــامـديـ ـن فــربمــا حيِيَ الخشبْ

* * *

يــا قــومُ هــذا نــشـؤكـم وإلى المعــالي قــد وثـبْ
كــونــوا لــه يكـنْ لـكـم وإلــى الأمــام ابــنــاً وأبْ

* * *

نحن الأولى عــرف الـزمــا نُ قــديمَنا الجـمَّ الحسبْ
ومَـعيـنُ ذاك المـجـد فـي نسـلِ العـروبـة مـا نضَبْ
وقــد انتبـهـنــا لــلحيــا ة آخــذيــن لـهــا الأهــبْ
لـنحــلَّ مــركـزنــا الــذي بــيـن الأنــام لــنــا وجبْ
فـنــزيــد في هــذا الــورى عـضــواً شــريفــاً منتـخَبْ
نــدعــو إلى الحسنى ونــو لـي أهلَهــا منــا الــرغـبْ
مــن كــان يـبــغــي وُدنــا فعلى الـكــرامــة والــرحبْ
أو كــان يـبــغــي ذلــنــا فـله المـهــانــةُ والـحــربْ

* * *

هــذا نــظامُ حــيــاتِــنــا بــالــنــور خُطَّ وبــالـلهــبْ
هــذا لـكـم عــهـدي بــه حتى أُوَسَّــدَ فِي الـتُّــرَبْ
فــإذا هـلكتُ فـصـيحـتي تَحْيَا (ٱلْجَزَائِرُ) و(العرب)[1]

---

(١) الشهاب: ج ٤، م ١٣، قسنطينة يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول ١٣٥٦ = ١١ جوان ١٩٣٧ م.

القوميــة والإنسانيــة

ألقيت ليلة احتفال جمعية التربية والتعليم الإسلامية بالمولد الشريف ـ بقسنطينة

الحمد لله ثم المجد للعربِ
مَن أنجبوا لبَنِي الإنسان خيرَ نبِي

ونشروا ملةً في الناس عادلةً
لا ظلمَ فيها على دين ولا نسَبِ

وبذلوا العلم مجاناً لطالبه
فنال رُغْبَاهُ ذو فقر وذو نشَبِ

وحرروا العقلَ من جهل ومن وهَمٍ
وحرروا الدينَ من غِشٍّ ومن كذِبِ

وحرروا الناسَ من رقِّ الملوك ومن
رق القَداسة باسم الدين والكتبِ

قَومي هم وبنُو الإنسان كلُّهم
عشيرتي، وهدى الإسلام مطَّلَبِي

أَدعو إلى الله لا أَدعو إلى أحد
وفي رضى الله ما نرجو من الرَّغَبِ[1]

---

(١) الشهاب: ج ٣، م ١٤، غرة ربيع الأول ١٣٥٧ هـ = فيفري ١٩٣٨ م.

السياسة في نظر العلماء
هي التفكير والعمل والتضحية

بهذه الأبيات ختم الأستاذ عبد الحميد ابن باديس خطابه التاريخي في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني لجمعية العلماء في سنة ١٩٣٧ م(*).

أشعبَ الجزائر روحي الفِدى ... لِمَا فيكَ من عِزةٍ عربيَّهْ
بَنَيْتَ على الدينِ أركانَها ... فكانتْ سلاماً على البشريَّهْ
خَلَدتُم بها وبكم خلَدَتْ ... بهذي الديارِ على الأبدِيَّهْ
فدُوموا على العهدِ حتَّى الفَنَا ... وحتى تَنالُوا الحقوقَ السنيَّهْ
تَنالُونَهَا بسواعِدِكُم ... وإيمَانِكم والنفوسِ الأبيَّهْ
فضَحُّوا وهَا أنا بَينَكُمُ ... بِذاتِي ورُوحِي عليكم ضَحيهْ

(*) الشهاب: ج ٦ م ١٣، غرة جمادى الثانية ١٣٥٦ هـ = أوت ١٩٣٧ م.

اشهدي يا سما

اشْهَـدي يـاَ سَمَـا وَاكْـتُـبَـنْ يـاَ وُجُـودْ
أَنَــنَـا لِـلـحِـمَـى سنكُـونُ الـجـنُـودْ
فَـنـزيـحُ الْـبَـلاَ ونَـفُـكُّ الْـقُـيُـودْ
ونُـنـيـلُ الـرِّضَـى مَـنْ وَفَى بـالـعُـهُـودْ
ونُـذِيـقُ الـرَّدَى كُـلَّ عَـاتٍ كَـنُـودْ
فَـيَـرَى جـيـلُنَـا ذِكْـرَيَـاتِ الـجُـدودْ
ويَـرى قـومُـنـا خـافِـقَـاتِ الـبُـنُـودْ
وَيُـرَى نَـجـمُـنَـا لِـلعُـلا فـي صُـمُـودْ
فـتَـضُـمُّ اسـمَـنَـا صـفـحـاتُ الـخـلُودْ
هَـكَـذَا هَـكَـذَا هَـكَـذَا سَـنَـعُـودْ
فَـاشهَـدي يَـا سَمَـا واكـتُـبَـنْ يَـا وُجـودْ
أَنَّـنَـا لِـلْعُـلاَ أَنَّـنَـا لِـلخُـلودْ(١)

---

(١) هذا النشيد ارتجله الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس في حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم ٢٧ رمضان ١٣٥٦ هـ بمناسبة إحياء ليلة القدر، وقد أدرجناه لأهميته.

نشر في جريدة البصائر عدد ٩٢ بتاريخ ٢٠ شوال ١٣٥٦ هـ = ٢٤ ديسمبر ١٩٣٧ م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٩

مدخل تاريخي (الجزائر منذ الاحتلال حتى ظهور حركة الشيخ عبد الحميد بن باديس) ١٣

الفصل الأول: الإمام عبد الحميد بن باديس.......... ٢٧

● ولادته ونسبه ٢٧

● تعليمه ٣٠

● نشاطه التعليمي قبل الحرب العالمية الأولى ٣٣

● صفاته الخَلقية والخُلقية ٣٦

● وصف مدينة قسنطينة ٤٦

الفصل الثاني: أعمال ابن باديس وآراؤه ٥١

● التعليم........................ ٥١

● تعليم المرأة...................... ٦١

● الرحلات ٦٤

● الصحافة....................... ٦٨

● مجالات نشاطه الصحفي.............. ٧١

● التجنس ٧٨
● الوحدة العربية ٧٩
● التقدم والمدنية ٨٠

الفصل الثالث: النشاط السياسي ونشاطات أخرى ٨٥

● نشاطاته السياسية ٨٥
● ابن باديس والطرقية ١٠٨
● نشاطات أخرى: جمعيات الكشافة ـ الجمعيات الفنية والرياضية ـ جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين ـ جمعيات التجار والجمعيات الخيرية ...... ١١٦ ـ ١٢١

الفصل الرابع: ابن باديس والعالم الإسلامي ١٢٣

● قضايا العالم الإسلامي ١٢٣
● بين ابن باديس وحسن البنا ١٣٦

الفصل الخامس: ابن باديس في نظر معاصريه ١٥١

● في نظر المفكرين ١٥١
● في نظر المؤرخين ١٥٧
● في نظر الفرنسيين ١٦٤
● في نظر زملائه وتلاميذه ١٦٩

الخاتمة ١٧٧
مصادر البحث ١٨٤
الملاحق ١٩٥

١ ـ القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٧
٢ ـ دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها ٢٠٢
٣ ـ رسالة من الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الفضيل الورتلاني حول البعثة الأزهرية ٢٠٧
٤ ـ برقية من الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى علوبة باشا ٢١١
٥ ـ من شعر الإمام عبد الحميد بن باديس ٢١٢

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ - عبد الله بن المبارك (الإمام القدوة).
تأليف محمد عثمان جمال.

٢ - الإمام الشافعي (فقيه السنة الأكبر).
تأليف عبد الغني الدقر.

٣ - مصعب بن عمير (الداعية المجاهد).
تأليف محمد حسن بريغش.

٤ - عبد الله بن رواحة (أمير شهيد وشاعر على سرير من ذهب).
تأليف د. جميل سلطان.

٥ - أبو حنيفة النعمان (إمام الأئمة الفقهاء).
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

٦ - عبد الله بن عمر (الصحابي المؤتسي برسول الله).
تأليف محيي الدين مستو.

٧ ـ أنس بن مالك (الخادم الأمين والمحب العظيم).
تأليف عبد الحميد طهماز.
٨ ـ سعيد بن المسيب (سيد التابعين).
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٩ ـ السلطان محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية وقاهر الروم).
تأليف د. عبد السلام فهمي.
١٠ ـ الإمام النووي (شيخ الإسلام والمسلمين وعمدة الفقهاء والمحدثين).
تأليف عبد الغني الدقر.
١١ ـ الشيخ محمد الحامد (العلامة المجاهد).
تأليف عبد الحميد طهماز.
١٢ ـ السيدة عائشة (أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام).
تأليف عبد الحميد طهماز.
١٣ ـ الإمام البخاري (سيد الحفاظ والمحدثين).
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
١٤ ـ عبادة بن الصامت (صحابي كبير وفاتح مجاهد).
تأليف د. وهبة الزحيلي.
١٥ ـ عبد الله بن عباس (حبر الأمة وترجمان القرآن).
تأليف د. مصطفى الخن.
١٦ ـ جابر بن عبد الله (صحابي إمام وحافظ فقيه).
تأليف وهبي غاوجي الألباني.
١٧ ـ أحمد بن حنبل (إمام أهل السنة والجماعة).
تأليف عبد الغني الدقر.

١٨ ـ كعب بن مالك (شاعر العقيدة الإسلامية).
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود (الإمام الحافظ الفقيه).
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد (حِبُّ رسول الله وابن حِبِّه).
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان (صحابي كبير وملك مجاهد).
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي (الجواد ابن الجواد).
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس (إمام دار الهجرة).
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود، (عميد حملة القرآن، وكبير فقهاء الإسلام).
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل، (إمام العلماء، ومعلم الناس الخير).
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني (إمام الحرمين).
تأليف د. محمد الزحيلي
٢٧ ـ القاضي البيضاوي (المفسِّر ـ المتكلِّم ـ الفقيه ـ المؤرِّخ ـ الأديب).
تأليف د. محمد الزحيلي.